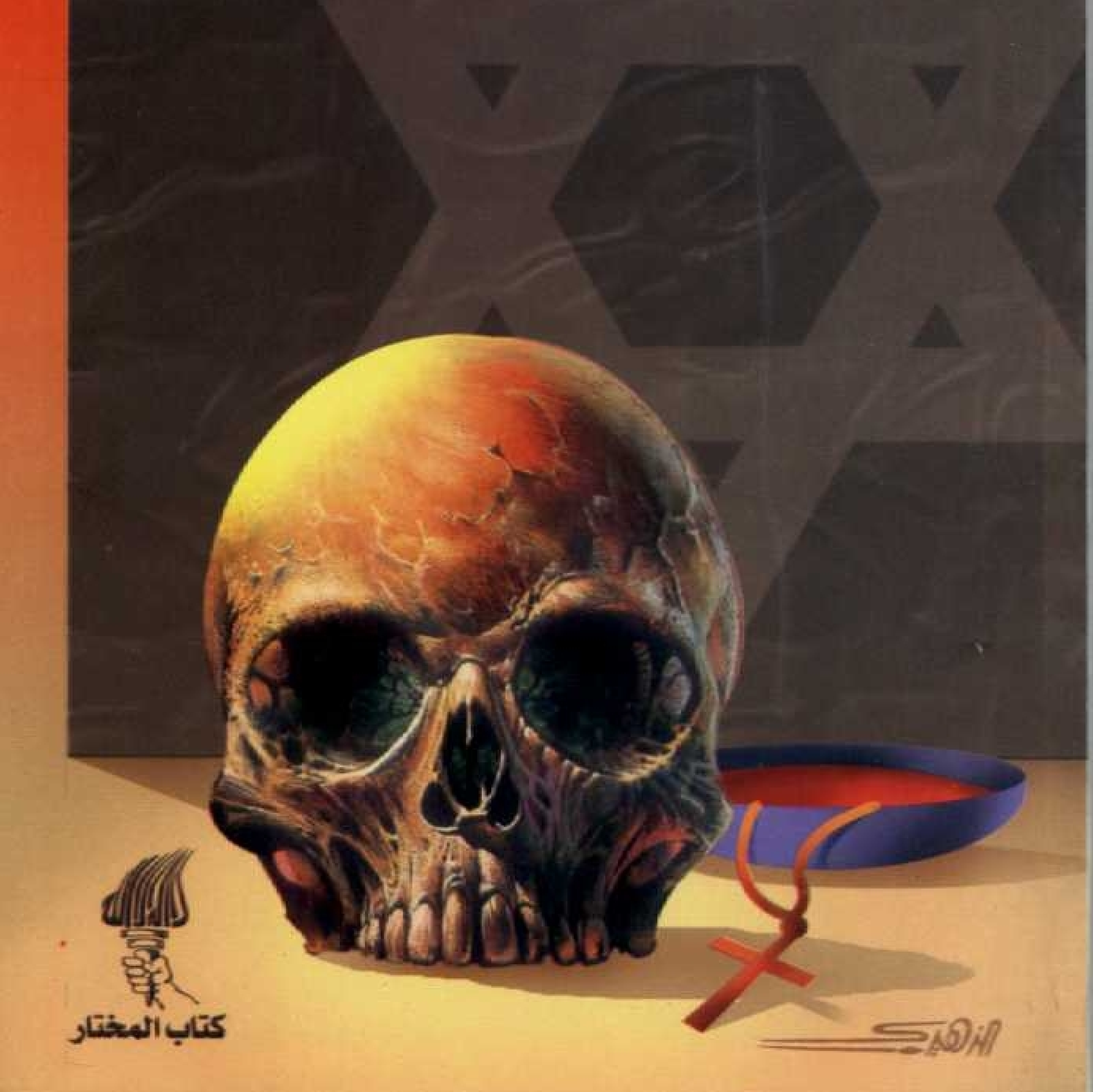
نجيب الكيلانى

حارة اليهود



روايات إسلامية

٥

حارة اليهود

نجيب الكيلاني

كتاب المختار

بسم الله الرحمن الرحيم

(الطبعة العشرون)

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٤٠٢٠

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

٣ حارة الجمل - المتفرعة من ميدان السيدة زينب - القاهرة

تليفون ،فاكس ٣٩٢٢١٥١

شخصيات الرواية

- **شريف باشا** : والى دمشق من قِبَل محمد على .
- **البادرى توما** : "Padre Tomaso da Calangiano" قسيس إيطالى الأصل ، فرنسى الجنسية يعيش فى دمشق منذ أكثر من ثلاثين عامًا .
- **إبراهيم عمار** : خادم البادرى توما .
- **سانتى** : صيدلى بمستشفى دمشق العام ، وصديق الأب توما .
- **داود هرارى** : تاجر يهودى كبير معروف بحسن السيرة يطلقون عليه « اليهودى الصالح » تخطى الخامسة والخمسين من العمر .
- **كاميليا** : زوجة داود هرارى ، فى الثلاثين من عمرها .
- **مراد الفتال** : خادم فى بيت داود هرارى ، ويريد الزواج من استير .
- **استير** : خادمة فى بيت داود هرارى وتحب مراد .
- **الحاخام موسى أبو العافية** : من رجال الدين .
- **الحاخام موسى سلانيكلى** : اليهودى المشهورين
- **الحاخام العنتابى** : « ربى » ديانة اليهود بالشام .
  (منصب رئاسى فى الديانة اليهودية)
- **سليمان الحلاق** : حلاق يهودى بجوار كنيس اليهود
- **يوسف هرارى** : أخ لداود

- **إسحاق هرارى :** أخ ثان لداود
- **هارون هرارى :** أخ ثالث لداود
- **يوسف لينيادو :** يهودى صديق لأسرة هرارى .
- **كراميو :** Gremieux
- **مويز مونتيفيورى :** Moses Montefore

من كبار اليهود فى فرنسا وأوروبا ومندوبان عن جمعية الاتحاد الإسرائيلى .

- بالإضافة إلى شخصيات ثانوية أخرى :

(شرطة - محققون - قناصل دول ... إلخ) .

مكان الرواية وزمنها

- **المكان :** دمشق .
- **الزمن :** الفترة ما بين فبراير (شباط) عام ١٨٤٠م حتى سبتمبر (أيلول) من نفس العام ، وكانت دمشق في ذلك الوقت تحت حكم محمد على باشا والى مصر .



الفصل ١

نحن فى دمشق فى أوائل عام « ١٨٤٠م » ، بعد أن احتلت قوات «محمد على باشا» الشام بقيادة ولده « إبراهيم باشا » ، ذلك القائد المحنك ، وها هى دمشق تخضع للحكم المصرى ، وواليها من قِبَل الجيش المنتصر هو الرجل اليقظ « شريف باشا » . وليس فى دمشق كلها من لا يعرف تلك الحارة الشهيرة المميزة «حارة اليهود » . فإذا سرت فى هذه الحارة ، وقعت عيناك على رجال اليهود ونسائهم وأطفالهم ، وعلى بيوتهم المتلاصقة المزدوجة ، الأبواب تبدو صغيرة قليلة الارتفاع ، لا يكاد المرء يدخلها إلا منحنيًا ، ولا تتسع لأكثر من واحد ، وكأنها أبواب الدهاليز الغامضة ، والباب يقودك إلى ممر ملتوى كالأفعى ، يفضى إلى ساحة واسعة تنتشر فيها الأغنام والطيور والأرانب ، وبعض الحشائش ، وقد تجد أشجارًا مثمرة كالتين والعنب ، ومن آن لآخر ترى حانوتًا لبيع الخبز والمأكولات ، وآخر يتلألأ فيه بريق الذهب والجواهر ، وثالثًا يكتظ بأنواع الأقمشة والمنسوجات ذات الألوان الزاهية ، وقد تجد بالقرب منه خانًا كبيرًا لبيع الأخشاب ، وهناك قرب النهاية تجد «كنيس الإفرنج» الذى يتردد عليه اليهود لتأدية شعائر دينهم فى حرية تامة ، وإلى جوار الكنيس يقبع محل «سليمان الحلاق» الذى يتردد عليه كثير من الزبائن اليهود وغير اليهود ، وسليمان زرب اللسان ، حلو النكتة ، يقلد الأوربيين فى طريقة قص الشعر ، وتنظيم الخصلات ، وتنميق السوالف ، وسليمان مشهور

أيضًا ، بعملية «فصد الدم» بارع فى تأديتها ، فكثيرًا ما تراه يغلق دكانه ويحمل حقيبته ، ويذهب إلى أحد البيوت لإجراء فصد الدم لبعض المرضى ، وسليمان يهمه بالدرجة الأولى ألا يخرج من أى بيت خاوى الوفاض ، ومن ثم تراه يؤكد لكل مريض أن فصد الدم ضرورى له ، حتى ولو كان هذا المريض مصابًا بفقر الدم والهزال ، أو كان يعانى من إسهال حاد . إن سليمان يحب المال ويحب منظر الدماء أيضًا ، والفصد يحقق له الهدفين معًا ، وسليمان سمح الوجه ، باسم دائمًا ، لا تكاد تعبيرات وجهه تشف عما يعتمل فى داخله .

وفى حارة اليهود بدمشق تقيم أسرة « هرارة » ذات الثراء الفاحش والتجارات الواسعة والصيت الذائع . إن منزل «داود هرارى» يعرفه الجميع ، فهو بناء جديد يوحى بالعظمة والغنى والنفوذ ، نوافذه الزجاجية ذات الستائر الحريرية تجذب إليه الأنظار ، وطلاؤه الناصع البياض يوحى بالإعجاب والمتعة ، حتى النسوة اللاتى تظهر وجوههن من النوافذ أو فرجات الأبواب يتمتعن بجمال فائق ، وأصواتهن الرخوة الناعمة تثير خيال المراهقين ، وتحرك الدماء بعنف فى عروق الرجال . ومن أشهر الرجال الذين يقيمون فى حارة اليهود الحاخام «موسى أبو العافية» والحاخام «موسى سلانيكى» إنهما كثيرًا ما يبدوان فى الحارة وهما ذاهبان إلى الكنيس أو عائدان منه ، يحوطهما الوقار والهدوء والغموض ، وهى من لزوميات رجل الدين اليهودى ...

وفى حارة اليهود تبدو أشياء مسلية ، بل ومضحكة فى بعض الأحيان . إن عشرات من الشبان « الشوام » وبعض عساكر محمد على ،

يمضون في حارة اليهود يوزعون نظراتهم يمينًا وشمالًا ، ويحاصرون النسوة السائرات في الطريق بعيونهم النهمة الجائعة ، ويطلقون كلمات الغزل الساذجة بصوت خفيض في أغلب الأحيان ، ونادرًا ما يقولونها بصوت مرتفع ، والخجل يوشي وجوههم التي تفيض حيوية ، فالشائع عندهم أن النساء اليهوديات لا يكترثن كثيرًا بالآداب المرعية ، ولا مانع لديهن من أن تنصب في آذانهن كلمات الإطراء والثناء على جمالهن ، وعديد من الأقاصيص والحكايات يرويها المراهقون عنهن ، ويبالغون في تفاصيلها ، ولعل مما يقوى هذه الظنون حب اليهود للمال ، ورغبتهم في الحصول عليه من أي طريق ، فلا عجب أن تقع العين على أحد الشبان وهو يعبث بجيوبه ويحركها حتى يصدر عنها صوت ارتطام القروش ببعضها ، أو رنين القطع الذهبية ، ذات الصدى الساحر ، وعلى الرغم من أن هذه المظاهر قد تؤذي مشاعر الرجال من اليهود إلا أنهم يغضون الطرف عنها ، ويتجاهلونها تمامًا ، أملًا في أن يميل بعض هؤلاء على المحلات التجارية ، ويشتري بعض أغراضه ، ومن آن لآخر تسمع أحد تجار اليهود يدلل على بضاعته قائلًا :

«تفضلوا يا شباب .. عندنا عطور فاخرة ..»

« هنا أعظم الثياب الحريرية ..»

«تفضلوا .. مجوهرات .. وخواتم ذهبية وفضية ..»

وغيرها من الأشياء التي تصلح كهدايا .

وقد يتقابل أحد الشبان صدفة مع إحدى اليهوديات وهي تشتري بعض ما تحتاج إليه من بضائع ، فترمقه بنظرة عابرة ، فتغذي تلك

النظرة خياله بآلاف الأمنيات، وتشعل فى كيانه الرغبات الجامحة فيمضى وراءها مسلوب الإرادة حتى يراها وهى تختفى وراء أحد الأبواب، ويبقى هو رائحًا غاديًا يحلم باللقاء العامر بكل ألوان الملذات، ويظل هائمًا فى أحلامه حتى يحط المساء، وتنبعث أضواء المصابيح الهزيلة ...



الفصل ٢

وليس فى مدينة دمشق كلها من لا يعرف الأب «توما» أو «البادرى توما» كما يسمونه، وهو قسيس من سردينيا، إيطالى الأصل، لكنه يتمتع بالجنسية الفرنسية ويعيش فى دمشق منذ أكثر من ثلاثين عامًا . لقد تخطى آنذاك الخامسة والخمسين من عمره، ومع ذلك فإن وجهه الأشقر، يفيض بالحيوية والنشاط، وعينيه الصافيتين تنسكب منهما الطيبة والرضى واليقين، ولحيته الشقراء التى تناثرت فيها الشعيرات البيضاء تقطر سماحة وأمنًا وثقة، الرجال يبشُون لمقدمه، ويجلُونه أشد الإجلال، والنساء ترمقنه فى احترام بالغ،والأطفال يمتزج حبهم له بشيء قليل من الخوف، لأنه يعطيهم دائمًا الطعم الواقى ضد الجدرى، حتى اليهود برغم عدائهم التقليدي للمسيحيين لا يشذون عن هذه القاعدة، ويبدون كثيرًا من التقدير والمحبة للأب توما، بل إن اليهودى المعروف التاجر الثرى «داود هرارى» يُعد من أصدق أصدقاء الأب توما، وأخلص خلصائه، وكثيرًا ما يراهما الناس جالسين معًا، يتناقشان فى أمور الدين والدنيا، ويرشفان أقداح القهوة التركية، ويتبادلان المُلَح والطرائف فى مودة لا مثيل لها ..

ويسكن «الأب توما» – مع خادمه الوحيد «إبراهيم عمار» – فى دير صغير لا ثالث لهما – حياتهما هادئة بسيطة لا متاعب فيها ولا منغضات «والأب توما» وقته موزع بين العبادة والقراءة ومعالجة المرضى، ولديه فى الدير مكتبة عامرة بكتب اللاهوت والتاريخ والطب

واللغة ، وهو حريص على مداومة النظر فى كتب الطب ، القديم منها والحديث ، فتجد لديه كتب ابن سينا وابن النفيس والرازى المترجمة عن العربية إلى اللاتينية والإنجليزية والإيطالية ، كما تجد لمؤلفات الحديثة فى علم التشريح والحميات والأقربازين والفيزياء وغيرها ، وفى مقدور الأب توما أن يعطى الناس الطعم الواقى ضد الجدرى لأن هذا المرض كان كثير الانتشار فى تلك الأيام ، وكان يأتى على هيئة موجات وبائية عنيفة تكتسح المدن والقرى وتخلف وراءها الكثير من الشقاء والأحزان والعاهات ، بل كثيرًا ما كانت تترك جيشًا بأكمله مجموعةً متناثرةً من الجثث والعفن والبلاء ..

والأب توما يستطيع أن يمارس بعض العمليات الجراحية الصغيرة كأن يشق خراجًا أو يجبر كسرًا ، أو يخيط جرحًا ، كما كان يداوى الكثير من الأمراض الباطنية باستعمال خلاصة الأوراق والنباتات التي يغليها فوق النار ، وقد يقطر بعض المطهرات فى عيون المرمدين ، أو يضع بعض المراهم على رؤوس الأطفال المصابين بالقراع ، وتراه فى الصباح الباكر يستعد لإقامة الصلاة فى الدير ، فيفد إليه عديد من الناس ، فيلقى مواعظه ، ويؤدى الشعائر ، وكان له الكثير من الأصدقاء المرموقين ، ذوى المراكز والكفايات العلمية والدينية ، ومن أهمهم الخواجا «سانتى» الذى يعمل صيدليًا بالمستشفى العام بدمشق ، وكثيرًا ما كان «سانتى» يستعير الكتب من «الأب توما» ويقضى معه بعض السهرات الليلية ، يتدارسون فيها أمور العلم والدين والسياسة . قال له سانتى ذات مساء :

– «لماذا لم تتزوج ؟»

ابتسم الأب توما وقال :

- «من قال ذلك ؟ ؟ لقد تزوجت ..»

نظر إليه سانتى باهتمام وقال :

- « عهدتك تتحرى الصدق دائمًا ..»

هز الأب توما رأسه وقال فى شيء من الشرود :

- «لقد تزوجت الحقيقة »

انفجر سانتى ضاحكًا وقال فى معاتبة :

- « المرأة أقوى حقيقة فى حياتنا »

- «الإنسان ليس الحقيقة كلها بل هو جزء منها ... يا صديقى العزيز سانتى .. لقد عشت لها .. للحقيقة »

همس سانتى وقد بدا الخجل على عينيه :

- «لكن المرأة حقيقة تبعث الدفء فى القلوب والأرواح والأجساد ..»

- « الحقيقة الكبرى دفنها أبدى خالد »

ونظر الأب توما إلى السماء الصافية المرصّعة بالنجوم المتألقة وكان الجو باردًا وتمتم :

- « طوبى لكل الأتقياء »

تنهد سانتى وهتف :

- « إنه ضرب فريد من البطولة »

- «ماذا تقصد ؟ ؟»

- « اغفر لى يا أبتاه .. أنا أصلى وأصوم .. لكن عطر النساء يدير

رأسى، ولهذا تزوجت ولا أستطيع أن أتصور رجلًا طبيعيًا بدون امرأة »

قال توما فى يقين ثابت :

– « إنه حرمان بإرادتى .. لم يلزمنى به أحد وأنا لا ألزم به أحدًا .. فليتزوج الرجال .. وليأت إلى الدنيا أطفال كالزهور .. لكن لابد أن يكون هناك طائفة يتفرغون لمجد الله، ويعشقون الحقيقة .. ويهبون حياتهم كاملة لها ..»

وشرب الأب توما جرعة من القهوة واستطرد :

– « أنا فى قمة السعادة .. حينما أتأمل الوجود .. وأفكر فى عجائب مخلوقات الله .. وأندمج فى هذا الكون .. وأتذكر « السيد العظيم » أهيم فى عالم وردى رائع .. وأنتشى نشوة كبرى » .

ثم التفت إلى سانتى قائلًا :

– « ألست معى فى أن الملذات تختلف ؟ ؟ هناك من يجد لذته فى الطعام، وآخر يجدها فى المال وجمعه، وثالث لا يستشعرها إلا فى أحضان النساء .. وهكذا .. وأنا العاشق للكون وما فيه، أنا أنعم فى رحاب الحقيقة الأبدية، أشعر أن سعادتى لا بداية لها ولا نهاية .. وجدت قبل أن أولد .. وستمتد .. وتتخطى سنوات العمر .. وترافقنى فى الآخرة .. أتعى جيدًا ما أقول يا سانتى ؟ ؟ »

هز سانتى كتفيه وقال :

– « أقر بعجزى ...»

– « إن لك أجنحة، ولكنك تأبى أن تجربها ...»

– « أية أجنحة .. ؟ »

- « الروح تستطيع أن تخترق بها الحواجز والحجب ..»
- « أنا ثقيل .. ثقيل .. يا أبتاه ..»

ربت «توما» على رأسه فى حنان صادق وعيناه مبللتان بالدموع وتمتم فى رقة :

- « فليحرسك الله .. وليبارك مسعاك ..»

وسادت فترة صمت قال الأب توما بعدها :

- «الرحلة طويلة شاقة لكنها ممتعة .. ما زلت أذكر الأيام والليالى .. جزيرة ساردينيا .. ونحن أطفال .. الشاطئ الجميل .. الصغيرات اللطيفات يلعبن فى المياه النقية كالأوزات ويتردد صدى ضحكاتهن البريئة فى الآفاق .. وابتسامات الفتيات الجميلات فى ظلال الخمائل .. كنا نأكل فى نهم .. ونشرب .. ونلهو ...،نعب الحياة عبًّا .. كان كل شيء رائعًا وجميلًا .. ودخلت مدرسة اللاهوت .. وتفتحت عيناى على السطور الأولى من كتاب الحقيقة .. والكتب لا تضم كل شيء .. هناك أشياء كثيرة نتعلمها من التجربة وأشياء أخرى تنبثق من الذات ، وينبض بها القلب .. وتشدو بها الروح ، قد لا نستطيع التعبير عن هذه الأشياء مع أنها أروع ما فى الحياة والوجود .. لكنها موجودة .. وأشعر بها جيدًا .. هى زادى وحياتى .. لذا ترانى سعيدًا وأشعر أكثر بالسعادة حينما أرانى وقد اجتزت تلك المسافات الشاسعة فى عالم النفس الرحب الكبير .. آه يا سانتى .. أنت لا تشعر بما يعمر قلبى من مجد وروعة » .



الفصل ٣

لا يستطيع أحد أن ينكر ما لـ «داود هرارى» من بطش ونفوذ وشخصية مرموقة، هو بمقاييس رجال الدين اليهودى من المتدينين الأوائل الذى يحافظون على الصلاة، ويهتمون بالشعائر ويظهرون احترامًا وتقديرًا بالغين نحو الحاخامات، وكثيرًا ما أجرى الترميمات اللازمة للمعبد اليهودى أو أعاد صباغته بالألوان الزاهية من عام لآخر، وهو بمقاييس رجال التجارة مراوغ كبير ذو حاسة تجارية لا تخيب، كما لو كان له قرنا استشعار يعرف بهما ما سوف يجد من أزمات فى بعض أنواع البضائع، فتراه يخزن بعض المواد، أو يجمعها من التجار ثم يخفيها تمامًا، وعندما تستحكم الأزمة، وتشتد الحاجة إليها، يظهرها بمقدار، ويوزعها فى السوق السوداء، فيبيعها بأغلى الأسعار، وهو بمقياس رجال النفوذ صاحب مركز قوى تربطه برجال القنصليات روابط وثيقة، وقريب من الحكام، ويستطيع الحصول على كل ما يستعصى عليه نواله بماله، وهو رجل أسرة يقبض على زمام الأمور بيد حديدية، فلا تستطيع زوجه الجميلة «كامليا» ولا أولاده أو خدمه، أن يحيدوا عن السياسة التى يرسمها قيد أنملة، فهو على ما يظهر رجل ناجح موهوب ينسق حياته العامة والخاصة تنسيقًا يكاد يكون آليًا، لكن أحدًا لم يكن يعلم أن زوجه «كامليا» كثيرًا ما تضيق بهذا النظام الآلى الصارم، بل وتشمئز منه، لكنها فى نفس الوقت مهيضة الجناح، مستسلمة للأمر الواقع، لا

تستطيع أن تغير من الأمر شيئًا، وكانت تكتم فى نفسها تمردها وحنقها، وكانت صغيرة السن بالنسبة له، فهو فوق الخامسة والخمسين، أما هى فلم تكن قد بلغت الثلاثين من عمرها، وعندما كان داود يدعو علية القوم إلى بيته كانت زوجه كامليا تجلس وسط النسوة متألقة كالزهرة الندية، عينان تنبضان بسحر جذاب فاتك، وعليها مسحة من حزن لا يكاد يبدو، يزيد رونقها بهاء وفتنة، وكان كل واحد فى الحضور يتمنى أن يراقصها أو يجاذبها أطراف الأحاديث، لكنها على ما يبدو كانت خجولًا لم تتعود هذه الجرأة وذلك الاختلاط برغم الحفلات المتكررة. ولم يكن داود ليسمح لها بأن تغادر البيت وحدها، ولا تذهب إلى بيت أبيها أو جيرانها أو صديقاتها إلا فى صحبته، وكان ينبه عليها قبل كل حفلة أو مادبة بألا تسمح لأحد بمراقصتها أو بالإطالة فى الحديث معها، مهما كانت شخصيته، حتى ولو كان سفيرًا من السفراء، أو قنصلًا من القناصل، والغريب أنها بالرغم من حنقها عليه كانت تخافه، وتعمل له ألف حساب، كان ظاهرها فى الواقع يتسم بالطاعة والرضى والحب لزوجها، وكانت أعماقها تكتظ بكراهية زائدة له ولأسلوبه فى الحياة، لكن السر الخطير الذى لم يكن يعلمه أحد هو صلتها المريبة بخادم الأسرة «مراد الفتال».. ومراد هو محل ثقة زوجها ويعرف الكثير من أسرار سيده وصفقاته المريبة، بل يعرف أشياء قد لا تعرفها كاميليا نفسها..

إن مراد هو خادمه الأمين الذى يثق به ثقة مطلقة، والحق يقال فإن مراد كان مخلصًا لسيده داود، ملتزمًا بالآداب المرعية، وكان

متعلقًا بفتاة يهودية تقوم هى الأخرى بالخدمة فى بيت داود هرارى ، وكان كل أمله أن يتزوجها . اسمها « استير » لم تتخط التاسعة عشرة ، وهو يكبرها بخمس سنوات ، ويبدو أن سيدتها قد أدركت العلاقة الوليدة بينها وبين زميلها فى الخدمة مراد ، فاشتعل قلبها بالحقد عليها ، وكثيرًا ما همت بطردها ولكن وقفت عاجزة أمام هذه العقدة ، لأن طردها ربما يؤدى إلى فرار مراد الفتال ، وكاميليا لا تريد ذلك ولا تطيقه ، بل لعل تهور كاميليا فى مثل هذه الحالة قد يكشف ما خفى ، وينجلى عن فضيحة كبرى ، ولذا كانت « كاميليا » مضطرة لأن تخفض من حدة غضبها وغيرتها ، وتسوس الأمور بطريقة عاقلة ، وتتحمل وجود استير ، ويكفى أن مراد طوع بنانها ..

قال داود :

- « لسوف أرحل اليوم إلى بيروت يا كاميليا » .

وعلى الرغم من أنها كثيرًا ما تطرب لسفرياته ، وتتمنى دائمًا ، إلا أنها هتفت فى دهشة :

- « إنك كثير الأسفار .. وتتركنى وحدى دائمًا أعانى الوحدة والعذاب ..»

نظر إلى وجهها الحزين ، وعينيها الدامعتين ، وتمتم :

- « أتحبيننى لهذه الدرجة ؟ ؟ »

بان الغضب على ملامحها ، ونفرت منه فى احتجاج ، وأعطته ظهرها وهى تقول :

- « يا لك من ظالم ! ! ألا تعرف حبى بعد هذه السنوات الطوال من الزواج ؟ ؟ ثلاث عشرة سنة يا داود ، إنها عمر ..»

كانت فى قرارة نفسها تشعر أن أيامها معه تشبه أيام السجن برهبته وعذابه وملله .. تنهد فى حسرة وتمتم :

- «رجل فى الخامسة والخمسين وأنت فى عز شبابك ..»

التفتت إليه، وشبكت يدها خلف عنقه كطفلة تتعلق بأبيها وقالت وبراءة الأطفال فى عينيها الجميلتين :

- «إن مجرد وجودك إلى جوارى يبهج قلبى .. علاقتنا فوق الماديات والمطالب الجسدية ..»

هذه الكلمات أزعجته، إنه يشم فيها معنى العزاء والتماس المعاذير التافهة لضعف قوته، وانحسار ظل الشباب ... شبابه الذى يعانى آلام الغروب، ويرتجف من هول الشتاء .. شتاء العمر القاسى الذى لا يرحم .. وتمتمت «أنت لم تزل قويًا ..»

هى تكذب وهو يعلم ذلك جيدًا .. وكان حريصًا على أن تنتهى هذه المناقشة بأسرع ما يمكن، لذا قال وابتسامة صفراء ترتسم على فمه :

- «لا تحزنى يا حبيبتى .. لن أبقى فى بيروت أكثر من إسبوع .. ولسوف أعود بعدها أكثر صحة وعافية ..»

وجفف عرق جبينه قائلًا :

- «هناك فى بيروت نوع من البذور يقولون أن طحنه ومزجه باللبن وشربه فى الصباح قبل الفطور يقوى الهمة، ويعيد الشباب ..»

تضرجت وجنتاها البضتان بالخجل وتمتمت :

- «كل ما أريده أن تأتى إلىّ سليمًا معافى .. أريدك أنت وكفى ..»

وشرد بضع لحظات وقال :

- «قال لى الحاخام «موسى أبو العافية» أنه لن يرد إلىّ قوتى ويرضى ربى ، إلا الفطير المقدس فطير عيد الفصح ..»

ارتجفت مفاصلها ، وشحب وجهها ، وتشبثت به قائلة :

- «بالله عليك لا تطرق هذا الحديث .. إننى أخاف ..»

قال في إصرار وعنف :

- «تلك أوامر التلمود» .. ودم المسيحى الممزوج بالدقيق له فعل السحر يا امرأة»

ثم عاد يقول «ويحى ! ! ماذا قلت ؟ ؟ ما كان يجب أن أتفوه بمثل هذا الكلام .. إنه خطير .. خطير للغاية ..»

قالت كاميليا متوسلة «وأنا لا أريد أن أسمعه منك ..»



الفصل ٤

ليلك يا دمشق تسكره الظلمات، وآلامك يا دمشق ترقبها النجوم الساهرة فى طول السماء وعرضها، وذكريات الأمس يا مدينة التاريخ العظيم تفيض بالدماء والجراح والمعارك التى لم يزل يتردد صداها عبر السنين، والعسعس يا دمشق يجوبون طرقاتك الخالية المقفرة فى صمت ويقظة، مخافة أن ترتفع رأس باعتراض، أو تنطلق صيحة تطالب بالحرية، أو يثب فارس بمدفعه يبدد السكون ؟ ويحيى الموات، ويشعل الحرب من جديد، الغزو والامتيازات الأجنبية يثقلان على كاهليك. ويحجبان وجهك المشرق العريق ويمرغانه فى التراب، لكنك لم تستلمى للفناء ولم ترضخى للذل.. لأنك يا دمشق من قديم قلعة الأحرار والإيمان.. ومنارة الإسلام والبطولات..

دمشق نائمة فى الظاهر، لكن عيونها مسهدة، والدموع تنكب على الخدود، والمسجد الأموى قد أوى إليه بعض العباد يضرعون إلى الله، ويطيلون السجود والركوع، ووالى دمشق من قِبَل محمد على باشا (شريف باشا) ينام فى قلعته مطمئن البال، هادئ النفس بعد أن انكسرت حدة المقاومة وهُزمت الجيوش المحلية والتركية، وتمزقت السكينة، واندحر الأمن، لكن حارة اليهود لها شأن آخر، لا يضيرهم أن يأتى حاكم، أو أن يذهب حاكم، فكل حاكم يأتى يدينون له بالطاعة والولاء، ويبذلون له الذهب والنساء، ويتطوعون بإفشاء أسرار المناضلين، ويشون بأعدائهم فى الدين، أو منافسيهم فى التجارة،

أو مناوئيهم فى الحرب الخفية .. الدس .. السموم .. الوقيعة هى أسلحتهم التى لم تتغير ولم تتبدل على مدار السنين ..

وبيت «داود هرارى» يقبع تحت الظلمات ببنائه الشاهق . الكل نائم .. الخدم ينكمشون من شدة البرد فى حجرة ضيقة للرجال وأخرى للنساء ، وأطفال «هرارى» يغطون فى سبات عميق ، لكن هناك حيّة تسعى .. ها هى «كامليا» تتسلل إلى حجرة فى آخر الدهليز الأرضى ، لا يقربها أحد .. وللدهليز باب صغير فى الإمكان إغلاقه بإحكام ، وفى نهاية الدهليز حجرة صغيرة قذرة تمتلئ بالأتربة وبعض المخطوطات القديمة والكتب المقدسة ، وغيرها من طبعات التلمود الصفراء الرثة وبعض الأغراض الأخرى ..

كانت «كاميليا» تلبس ثوبًا شفافًا يبرز مفاتن جسدها ، وفى يدها شمعة يتحرك لهبها المرتجف فيرسم على الحيطان ظلالًا تبدو كالأشباح الخرافية ، وأخذت كاميليا تنظر يمنة ويسرة ، وتتنقل فى قلق من مكان إلى مكان ، وأخيرًا وضعت الشمعة على رف صغير فى ركن من أركان الحجرة ، الانتظار يرهق أعصابها ، ويكاد يحطمها ، ترى لماذا لم يأت ؟ ؟ أقسمت بينها وبين نفسها أن تدمره .. تسحقه .. تقضى عليه قضاء مبرمًا إذا خلف وعده ولم يحضر .. اللحظات القصار تبدو كدهر طويل .. وهى تريد أن تفعل شيئًا كى تبدد سأمها وتبدد ضيقها وتهدئ من خفقات قلبها ، ونظرت إلى جوارها فوجدت كتابًا قديمًا يغطيه الغبار فتناولته وأخذت تقرأ : «الطور يورد» .

هو كتاب ألفه العالم الربانى يعقوب ، وهو أحد أئمة اليهود وآراؤه معتبرة فى المسائل الدينية ، وجاء فى البند ١٥٨ أنه «محرم على

اليهودى أن ينجى أحدًا من بقية الأمم من البئر التى يكون وقع فيها ، وعلى الطبيب اليهودى ألا يداوى أميًا (غير إسرائيلى) مطلقًا ولو بالأجرة إلا إذا أراد ضرره أو الانتفاع بماله ، فإذا كان مبتدئًا فى هذا الفن ، فليتعلم بمداواة باقى الأمم ، ويجوز إجراء المعالجة مجانًا فى هذه الحالة ..»

تضايقت كاميليا من هذه الكلمات ، فقذفت بالكتاب بعيدًا وعادت تنظر إلى باب الدهليز الضيق المظلم ، وتحاول جاهدة أن تتسمع وقع خطوات الرجل القادم ، لكن أحدًا لم يأت .. لقد مضى على الموعد أكثر من نصف ساعة ، ما معنى ذلك ؟ إنها تكاد تجن .. لا يمكن أن يخدعها هكذا .. لو فعل ذلك لذبحته ، هى على استعداد أن ترتكب أية حماقة من أجل تحقيق رغباتها الآثمة ، وإشباع ظمئها وجوعها . وبطريقة لا شعورية تناولت مخطوطًا آخر بخط اليد الأسود ، وأخذت تقرأ دون أن تدرك معنى لما تقرأ :

«لا يعتبر اليمين التى يقسم بها اليهودى فى معاملاته مع باقى الشعوب يمينًا ، لأنه كانما أقسم لحيوان ، والقسم لحيوان لا يُعد يمينًا .. فإذا اضطر يهودى أن يحلف لمسيحى فله أن يعتبر ذلك الحلف كلا شيء .. على أنه لا معنى للنزاع القائم على الأموال بين اليهودى وغير اليهودى . إن أموال المسيحى ودمه ملك لليهودى وله التصرف المطلق فيا ، وله الحق طبقًا لقواعد التلمود فى استرجاع تلك الأموال» .

لم تشعر كاميليا لهذه الكلمات بمذاق ، أو معنى ، على الرغم من معرفتها بانها من قواعد الديانة اليهودية التى تجلها وتحترمها ، بل

وتؤمن بها أعمق الإيمان ، وعادت تنظر من جديد إلى الدهليز المظلم والباب الصغير ، وأشباح الظلال تتراقص على الحيطان الجرباء الرطبة ذات الرائحة المميزة .. إنها تكاد تختنق : « هذا الملعون لماذا لم يأت ؟ لئن رأته عيناى لأنشب أظافرى فى جسده وفى عينيه لا .. لا .. إن عيونه جميلة تنضج بالحيوية والرجولة .. وليست ذابلة ميتة كعيون زوجى ...» تنهدت فى تعاسة ...أخذت تبكى وتضرب يديها ورأسها فى سرير قديم لكنها سرعان ما استعادت هدوءها وجففت دموعها .. واختطفت كتابًا ثالثًا صغيرًا وأخذت تقرأ فيه .. لكن الكلمات شدتها هذه المرة .. «ماذا أرى يا إلهى ؟ ؟» فلتقرأ بصوت مرتفع :

وقال الربى كرونر : « إن التلمود يصرح للإنسان اليهودى أن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه أن يقومها ، ولكنه يلزم أن يفعل ذلك سرًا لعدم الضرر بالديانة ، ولقد ذكر فى التلمود عن كثير من الحاخامات مثل الربى «رابى» والربى «نحمان» أنهم كانوا ينادون فى المدن التى يدخلونها عما إذا كان يوجد فيها امرأة تريد أن تسلمك نفسها لهم عدة أيام .. وجاء فى التلمود أيضًا عن الربى « اليعازر » أنه فتك بكل نساء الدنيا ، وأنه سمع مرة أن واحدة تطلب صندوقًا ملآنًا بالذهب كى تسلمك نفسها فحمل الصندوق وعبر سبعة شلالات حتى وصل لها . وجاء فى التلمود أن هذا الحاخام لما توفى صرخ الله فى السماء قائلًا تحصّل الربى « اليعازر » على الحياة الأبدية ..»

وعادت كاميليا تقرأ هذه الكلمات المثيرة مرة أخرى بإعجاب .

كيف تكون هذه الكلمات فى الكتب الإسرائيلية المقدسة دون أن

تدرى عنها شيئًا ؟ ؟ إن زوجها لا يذكر لها شيئًا عن ذلك ولا يخبرها إلا عن الفطير المقدس ...

وتوقفت عن التفكير حينما سمعت صرير الباب ...

ها قد أتى مراد الفتال ...

– « ايها الملعون كدت أفقد عقلى ..»

تشبثت به كاغلى أمنية تفوق الدين والدنيا بالنسبة لها .. وشربت مرة أخرى .. وشرب مثلها من خمر معتقة ، كان يرتجف .. لكنها قالت فى سخرية عابثة «سوف تتحصل على الحياة الأبدية كالحاخام اليعازر .. تصور يا مراد أننى غريبة .. غريبة جدًا ! أحيانًا كثيرة أحب القذارة .. هذه الغرفة بما فيها من تراب وظلام وأتربة وصراصير وأغراض قديمة .. تلذ لى .. تبعث النشوة العارمة فى كيانى .. أكاد أتقيأ من سرير داود النظيف وملمسه الحريرى ، وأكره الأثاث الفاخر فى غرفة نومى .. اشرب هذا الكاس .. لا تخف لن ياتى أحد إلى هنا مطلقًا .. إننى أعنى ما أقول لقد رتبت كل شيء .. النسوة فى دمشق يستمتعن بالحياة الحلوى فَلِمَ أحرم أنا منها ؟ ؟ اللعنة على كل شيء .. لدىّ المال والعطور والمجد .. لكنى أبصق على كل شيء لأنى أشعر بالحرمان ، ولا أعرف للحب معنى مع داود .. إنه ليس رجلًا ومع ذلك فأنا مضطرة لاحترامه .. يا مراد هذه الحجرة القذرة الصغيرة هى جنتى الموعودة ، لنشرب ونستمتع بالحياة ، وأنت لا تخف .. فقد جاء فى التلمود أن « اليعازر » قد فتك بكل نساء الدنيا .. ولم يحرقه الله بالنار .. وإنما تحصّل على الحياة الأبدية ..»

دمشق نائمة ...

والظلام كالكابوس المرهق ...

وحياة اليهود تتلوى كثعبان كبير .. فى جوفه الجواهر .. والقطع الذهبية .. وزجاجات الخمر .. وغانيات يلعبن بالنار .. ويرقصن رقصات غجرية .. وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس .. ودم المسيحيين .. وعيد الفصح الذى اقترب ..



الفصل ٥

- «إنى أكره هذا الرجل كراهية لا مثيل لها ..»

هذا ما كان يردده سليمان الحلاق دائمًا أمام أصدقائه من اليهود ، وكان يقول ذلك عن الأب «توما» أمام صديقه «مراد الفتال» ويؤكد عليه ، في وجود آل هرارى ، ويصرح به فى فخر أمام الحاخام موسى أبو العافية والحاخام موسى سلانيكلى .. وكان يحاول أن يعلل كراهيته للقسيس تعليلًا دينيًا ، فاليهود يكرهون المسيحيين ويعتبرونهم وثنيين ويستبيحون أموالهم ودماءهم ، بل يضعونهم فى مرتبة تساوى مرتبة الحيوانات والبهائم حسب تعليمات «التلمود» لكن السبب الحقيقى وراء كراهية سليمان الحلاق للبادرى توما هو المهنة .. أجل .. لأن سليمان يزاول مهنة الطب ، والأب توما يمارسها هو الآخر ، لكن الجميع يعرفون أن توما يمارسها على أسس علمية ، وتجربة طويلة ، أما سليمان فهو محدود الكفاءة ، أغلب نشاطه يدور فى مجال «فصد الدم» ولا يلجأ أحد إلى سليمان إلا فى حالة تعذر وجود الأب توما ، أو انشغاله بأعمال كثيرة ، ومن ثم فلا مناص من أن يلجأ المريض إلى سليمان مضطرًا .. ويقول سليمان لزوجته : تصورى هذا المأفون المدعو توما يعالج الناس جميعًا بالمجان ! ! إنه يضحى فى سبيلهم بماله ووقته دون أن يجنى أية فائدة ، والناس يثقون به . عندما أتذكر السنوات الطويلة التى قضاها هذا الأبله فى خدمة الناس دون أجر أكاد أجنّ ، لو تقاضى أجرًا لكان الآن يملك مئات ألوف

الألوف من الدنانير الذهبية، الأهم من هذا كله لو لم يكن الرجل موجودًا فى الشام لكنت قد ربحت الكثير من وراء المسلمين والمسيحيين هنا .. لكن ذلك الملعون أغلق باب الثراء والمجد فى وجهى .. ولن أنسى ما حييت أنه أساء إلىّ أكثر من مرة .. أجل .. ستقولين إنه لا يسئ إلى أحد .. لكنى أؤكد لك أنه كثيرًا ما كنت أصف دواء لمريض فيأتى هو ليغير الدواء، لم يكن يتكلم عنى بشيء ناب لكن مجرد إهمال علاجى أو تغييره يعنى أشياء خطيرة، معنى ذلك أنى جاهل، كل الناس يسخرون منى، ويتهامسون قائلين : سليمان لا يعرف شيئًا فى الطب سوى فصد الدم، آه يا زوجتى ربما أفضل أن يتهمنى الناس فى شرفى ولا يتهمونى فى كفاءتى فى مهنتى ..»

ومع ذلك فقد كان سليمان يعيش فى بحبوحة من العيش، ويحاول جاهدًا أن يتغلب على أحزانه وهواجسه، وكان يبتسم فى وجه الأب توما كلما تصادف ولقيه فى الطريق العام، أو اجتمعا معًا عند مريض. وذات مرة تجرأ سليمان وقال له :

– «أيها البادرى الصالح .. يجب أن تتقاضى أجرًا على جهودك الدائبة فى الليل والنهار .. الأجر يجعل لعملك معنى وقيمة .. حينما تقدم للناس شيئًا بلا ثمن فإنهم يزهدون فيه ولا يقدرونه حق قدره ..)
ابتسم الأب توما فى رقة وقال :

– «أى سليمان لا أريد أجرًا، ولا أنشد مجدًا بين الناس، إن عينّى متجهتان دائمًا صوب السماء، من أجل المسيح أعمل .. وفى سبيل التعساء من بنى البشر أجاهد .. والسعادة التى تتدفق بين حنايا

الضلوع هي الثواب الكبير .. إنها نعمة كبرى .. فليبارك الرب مسعانا ..»

كلمات البادرى كان لها وقع السهام على قلب سليمان ، وابتسامة البادرى النقية أثارت حنق سليمان الحلاق ، فتمنى أن ينقض عليه ويخنقه ، وهدوء الرجل أشعل عاصفة من الحقد فى قلبه ، لكن سليمان بادله ابتسامة بابتسامة ، وإن كان التناقض كبيرًا بين الابتسامتين ، وأثنى على فضيلة الأب وحسن إخلاصه ودعا له بمزيد من التوفيق والنجاح ..

قال سليمان لزوجه :

- « إننى أعتقد أن صلحاء هذا العالم هم البلهاء .. لو لم يكن لكل شيء ثمن فى هذه الحياة لما وَجَدَ الملايين الرغيف .. انظرى .. إننى أزنُ عملى بمقدار ما أسعى من خطوات ، وبقدر ما أقضى من ساعات ، وعلى أساس ما أحققه من نجاح ، هذا هو الصواب فى رأيى ، لكن هناك نقطة هامة يا زوجتى ، إننى لم أصل بعد إلى الهدف المنشود .

- « ما معنى ذلك ؟ »

- «ليس له سوى معنى واحد هو أن العمل الشريف وحده لا يستطيع أن يصعد بالإنسان إلى قمة المجد ، لابد إذن من الوثب .. القفز العالى .. لابد من التفكير لكى أصل إلى الهدف الأعظم .. أرانى مضطرًا لأن أكذب وأمالئ وأنافق وأسرق بل وأقتل فى بعض الأحيان . ألا ترين كيف حكمت أوروبا العالم وسيطرت عليه ؟ وكيف استطاع الإنجليز أن يثبتوا أقدامهم فى الهند .. ؟ بل كيف استطاع جيش إبراهيم باشا أن يسيطر على الشام ؟ ؟ لابد من الخوض فى دماء البشر

وجثث الضحايا .. الأقوياء ينتصرون .. وليست القوة سيفًا ومدفعًا .. لكنها عقل يفكر .. ولكنها قوة إرادة تسحق هواجس النفس وضعفها ، وتسخر من كل القيم النبيلة .. الجَسور وحده ينتصر ويثرى .. ويبلغ قمة المجد ..»

واحتقن وجه «سليمان الحلاق» وزمجر قائلًا :

– «هاأنذا ما زلت حلاقًا حقيرًا فى حارة اليهود .. مهنة تافهة حقيرة يستطيع أن يتعلمها أغبى خلق الله ..» ثم لمعت فى عينيه بارقة انتصار وقال : –

– «لكن الأمل لم يزل حيًا فى قلبى .. بينى وبين النصر خطوة واحدة .. قال لى داود هرارى سوف نضرب يا سليمان ثلاثة عصافير بحجر واحد .. أولًا سنحقق أمرًا دينيًا هامًا ، ثانيًا نقضى على منافس خطير ، ثالثًا ستربح يا سليمان أنت بالذات مالًا وفيرًا ..»

قال زوجه فى دهشة :

– «أنا لا أفهم شيئًا مما تقول يا سليمان ..»

– «ليكن .. فقد اجتمعنا .. وأصدرنا أمرنا ..» لوت الزوجة شفتها السفلى فى حيرة :

– «تزيدنى همًا وغموضًا ..»

– «إنه أمر سرى لا يخص النساء ..»

دق قلبها فى توجس وقالت : «إنى خائفة ..»

– «الخوف لا يحقق نصرًا ولا يصنع مجدًا يا امرأة ..»

– «من خاف سلم يا زوجى»

- «لو اعتصمت بالخوف لبقيت واقفًا فى مكانى طول حياتى دون تغيير حتى تجيف جثتى .. وأموت كالكلب ..»

وعاد سليمان إلى حجرته وحيدًا يفكر، أخذ يتصفح الوجوه التى التقى بها منذ ساعات فى كنيسة الإفرنج، إنهم من عليه القوم وكبرائهم، الحاخام موسى أبو العافية، الحاخام موسى سلانيكلى، داود هرارى وأخويه هارون وإسحاق، يوسف لينيادو .. ثلة من رجال الدين ورجال المال . فى هذا الركب يجب أن يسير سليمان، ومع هؤلاء الكبار يجب أن يتبوأ مقعده، ذلك مكانه الطبيعى، فليفعل أى شيء، إنه بذلك يلبى إرادة الله، ويحقق ذاته ويكسب المال، والمحركات كلها فى طىّ الكتمان، كل شيء قد تم رسمه بدقة متناهية، وما هى إلا ساعات حتى يصبح سليمان إنسانًا آخر .. لن يترك «محل الحلاقة» .. سيبقى كما هو سليمان الحلاق فى الظاهر، لكنه فى الحقيقة قد ولج باب الجنة الموعودة .. ونال ما يشتهى .. وأصبح رجلًا ذا قيمة .. وردد فى سعادة :

- «إنه مبلغ كبير جدًا .. كبير لو حَلقْتُ رؤوس أهل الشام جميعًا لما أمكننى الحصول عليه ..»

وأخيرًا ذهب إلى فراشه ونام، كان يردد أثناء نومه «إنه مبلغ كبير .. أكبر صفقة فى حياتى ..»

وكانت زوجه تربت على رأسه، وهو يغطُّ فى نومه، ويقول : «مسكين سليمان .. فليحقق الله لك ما تبتغيه ..» .



الفصل ٦

على الرغم من أن الوقت كان عصرًا وشهر فبراير (شباط) في بدايته ، إلا أن الجو كان دافئًا ، والسماء صافيةً ، ودير «البادري توما» رائق هادئ بسيط الأثاث تفوح في جنباته رائحة عطرية ، نتيجة لاحتراق العيدان الرفيعة ذات الأريج ، والتي تبعث بخيط رفيع من الدخان الأزرق. كان «البادري توما» يعد نفسه للخروج وقد ارتدى ثوبه الأسود ، ولف على وسطه الحزام الأبيض ، وهو لا يعدو عن كونه حبلًا نظيفًا بسيطًا ، وارتدى طربوشه المعروف ، وكان يقف إلى جواره خادمه الأمين «إبراهيم عمار» بعد أن أدى صلاته وفجاة قال الخادم إبراهيم :

– «أبتاه ..»

التفت توما إليه ، وقد لاحظ رنة حانية عاطفية في نبرات صوته :

– «ماذا تريد يا إبراهيم ؟ ؟»

قال خافض الرأس :

– «اريد أن أكون تقيًا مثلك ..»

ابتسم البادري في ود وهمس وعيناه تنظران في الآفاق الرحبة :

– «من يدري ؟ ؟ قد تكون أفضل مني عند أبينا الذي في السماوات ..»

قال إبراهيم : «مستحيل ، إنني أعرف نفسي جيدًا .. الخطايا القديمة تغرقني من أخمص قدمي حتى قمة رأسي ..»

قال البادري في رضى : «هذا بداية الطريق ..»

– «لكنى يا أبتاه أريد أن أجيد القراءة والكتابة ، أتمنى أن أحفظ كل الكتب المقدسة الموجودة لديك عن ظهر قلب .. أريد أن أتقن العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية .. أريد أن أعرف الطب .. وأعظ الناس .. أريد أن أخاطب « السيد » بكل لغة .. بقلبى .. وعملى ولسانى وقلمى .. إن بداخلى طاقة كبرى ..»

وعاد البادرى يربت من ظهر خادمه قائلًا :

« أى بنى الحبيب ، الله يفهم لغتك دون أن تتكلم .. إنه يعلم خفايا القلوب .. الحفاة العراة من الصيادين والجهلة .. فتح لهم بابه .. أصبحوا حواريين لولده المخلص ...أخذت الدنيا عنهم المعرفة والنور .. إن يكن قلبك نقيًا .. تتفتح لك أبواب السماء وتصير الأرض كلها فى قبضة يدك .. ولا حدود لقدرة المؤمن .. لأنها من قدرة الله ..»

ألقى إبراهيم بنفسه بين ذراعى البادرى «توما » وأخذ ينتحب ، فجفف له دموعه وأعاد إليه الأمل والاطمئنان ، وظل معه حتى هدأت نفسه تمامًا ثم قال :

– « إنني ذاهب الآن يا إبراهيم لألصق إعلانات مزاد تركة «ترانوبا » .. إنهم أصدقاؤنا .. وسوف أذهب إلى حارة اليهود كى ألصق الإعلانات أو أغلبها هناك ، وسأخبر صديقى الحميم «داود هرارى » بهذا الأمر ..»

قال إبراهيم « أتظن أنه من الضرورى أن آتى معك .. ؟ ؟ »

– «لا .. لتبق أنت لتعد طعام العشاء .. ويكفى أن تحضر لى حقيبتى الصغيرة ، فقد ينتدبنى بعض المرضى لإسعافهم او علاجهم ،

ما أعظم أن يداوى الإنسان الأرواح والأجسام ، ولكَمْ كنت أتمنى أن تكون معرفتي بالطب أكثر من ذلك ..»

تناول البادرى حقيبته ، وأدى صلاة قصيرة ثم التفت إلى خادمه إبراهيم عمار قائلًا :

– «لن أبقى هناك طويلًا فأنا أشعر برغبة فى الراحة .. وأرجو أن أجد فرصة للقراءة .. عندما أقرأ أشعر براحة كبرى .. فليباركك الله يا بنى الطيب .. وليسدد خطاك ..»

وانطلق البادرى يخب خبًا صوب حارة اليهود .



الفصل ٧

كان البادرى يشق طريقه عبر حارة اليهود ، وعلى الرغم من أنه اقترب من الستين إلا أنه كان بادى النشاط ، تُرى ملامح السعادة على وجهه الأشقر ، وكان الناس يحيّونه من آن لآخر فيرد التحية بابتسامة حلوة ، أو يلوح بيده شاكرًا ، أو ينطق بكلمة شكر مهذبة ، الجميع يعرفون البادرى توما ليس فى حارة اليهود وحدها أو دمشق وحسب ، بل إن الرجل لتُشَدُّ إليه الرحال من جميع أنحاء الشام ، تقديرًا لطبّه وفنه ، وإيمانًا ببراعته وخلقه الحسن . ونظر البادرى إلى « داود هرارى » من بعيد فابتسم فى رضى ، إن داود صديقه الحميم ، وهو رجل طيب معروف أمام الناس بالصلاح والاستقامة ، حتى إنهم كانوا يطلقون عليه « اليهودى الصالح » وبشّ داود لمقدم توما ، واستقبله فاتحًا ذراعيه ، واحتضنه فى حب ، وقبّل وجنتيه ولحيته ، مما جعل البادرى يغمغم « صديقى وحبيبى داود »، وكان يقف خلف داود عدد من اليهود المعروفين : الحاخام موسى أبو العافية ، والحاخام موسى سلانيكلى وهارون وإسحاق ويوسف هرارى ويوسف لينيادو ، وتمتم الحاخام سلانيكلى :

« إن صداقتكما مخيفة .. لكم نخاف على داود أن تخرجه من دينه أيها الأب توما ، وتدخله فى ديانتك » . ضحك الجميع بينما رد البادرى قائلًا « كلنا إخوة » .

وقال داود : «جئت فى وقتك ، لدينا ولد نريد أن تعطى له طعمًا ضد الجدرى الآن ..»

– «من حسن الحظ أن معى حقيبتى ، غير أن معى أيضًا بعض الإعلانات أريد إلصاقها على باب الكنيس » .

قال داود : « هيا بنا لإعطاء الطعم أولًا .. وستكون هناك فرصة لشرب الشاى ، ومجاذبتك أطراف الحديث .. إنى فى شدة الشوق للقياك ، لم أعد أطيق فراقك » .

وسار الرجال فى موكب مهيب يتقدمهم البادرى وداود والحاخامان الكبيران ، إنها صورة للتسامح والمحبة بين أتباع دينين عرف عنهما العداء الشديد بينهما من قديم الزمان ، منذ العشاء الأخير للمسيح .. ودلفوا إلى بيت داود عبر الباب الصغير ، واجتازوا الممشى الضيق المعتم ، وانحرفوا صوب المربع الجديد .

لو قيل للبادرى إن البحار هاجت وماجت واشتعلت أمواجها نيرانًا فجأة لصدق الأمر ، أما أن يرى صديقه الحميم اليهودى الصالح داود يكشر عن أنياب الغدر ، وتنقلب سحنته الطيبة فجأة إلى سحنة شيطان شرير ، ثم يقترب منه يريد أن يفترسه فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، تمتم البادرى « ماذا جرى ولِمَ ؟ » لم يجب داود بشيء . نظر البادرى حواليه سائلًا الرجال « هَل تصيبه اللوثة من آن لآخر .. لم أكن أعرف » وفى لحظات كان البادرى مغللًا بالحبال ، لا يستطيع الحركة .. وبدأ يشعر بآلام الحبال تحز فى جسده الرقيق ، وهمس فى دهشة وقد شحب وجهه « أنتم أيضًا تشاركون داود فيما يفعل ؟ ؟ » ونفض البادرى رأسه ، وفتح عينيه ، وهتف فى استغراب :

– « هل أنا فى حلم أم فى يقظة ؟ أيها الرجال الطيبون ماذا تنوون أن تفعلوا بى ؟ »

قال الحاخام سلانيكلى ساخرًا :

– « أنت مقدم للمحاكمة »

– « لكنكم تمزحون مزاحًا ثقيلًا لا يليق بكم ولا يليق بى »

– « زعمت أنك تطمع فى تحويلنا عن ديانتنا إلى المسيحية أتقر بذلك ؟ ! »

قال البادرى وأمارات الألم ترتسم على وجهه وفى عينيه « نحن لا نسوق الناس سوقًا إلى بابه وحرية الاختيار للجميع وصاحب كل دين ، أى دين ، يدعو الناس للهداية بطريقته السليمة هكذا مرنا السيد المسيح » .

وضحك الرجال فى هستيرية وقال داود :

– « حسنًا إن ديننا يامرنا بأن نسفك دمك ، أترانا نطيعه أم نخالفه ؟ ؟ »

قال البادرى وقد دق قلبه بعنف :

– « إنك تمزح يا داود »

أخرج الحاخام سلانيكلى كتابًا صغيرًا من جيبه ثم قال :

« إذن فلنقرأ كلمات التلمود عن الفطير المقدس المعجون بدم مسيحى .. لنقرأ معًا .. »

وأخذ الحاخام يقرأ بضعة سطور ، وعيون البادرى تروح وتجئ ، والدموع تبلل أهدابه ، ولحيته ترتجف ، وتمتم :

« أيها الرجال .. أنتم تلعبون لعبة خطرة ، وتفتحون الطريق لفتنة

كبرى .. لقد سمعت شيئًا عن ذلك التقليد السيء لكنى لم أكن أصدقه .. ليست هذه كلمات التوراة ، لقد دسها عليكم بعض الحاخامات الجهلة حقدًا حقدًا على بنى البشر وانحرافًا بالديانة عن مجراها الصحيح ، انظروا فى الأمر جيدًا .. أنا لم أسيء إلى واحد منكم .. تدبروا .. إن القتل جريمة بشعة لا يقرها عرف ولا دين ولا قانون » .

قال الحاخام موسى أبو العافية :

- «لسنا فى حاجة لأن تعلمنا أمور ديننا .. إن سفك الدم هو تذكار لما أمر الله بنى إسرائيل بأن يلطخوا أبواب بيوتهم بدم الحمل المذبوح فى عيد الفصح عندما كانوا تحت عبودية فرعون »

هتف البادرى قائلًا :

- «لكن أيها الأخ المعظم ، التوراة نزلت قبل أن يأتى المسيح ، وعبودية فرعون لكم قديمة ، فكيف يأتى فى الديانة شيء يمس المسيحيين قبل أن يوجدوا ؟ ؟ إن أى عاقل متبصر يستطيع أن يتبين فساد ذلك ..»

تدخل الحاخام سلانيكلى قائلًا : « أسباب سفك الدم عندنا ثلاثة .. أولها : كراهيتنا للمسيحيين الذين هم بمثابة حيوانات أو وثنيين كفرة مستباح قتلهم ، وثانيها : أنه قربة إلى الله ، وثالثها للدم المسيحى فعل سحرى فى بعض الأمور السرية ..»

وعند المقطع الأخير تنبه داود ، تذكر عجزه الفاضح أمام زوجه الجميلة «كاميليا » ، وتذكر أن الفطير المعجون بدم المسيحى يرد إليه شبابه الضائع ، وحيويته الغاربة ، قد يُدخل على حياته فوائد جمة

تحقق له السعادة فى الدنيا والآخرة ، قال داود ساخرًا : « اغفر لى يا أبتاه ..»

– « وكيف أغفر لغادر يتجنى على الله ؟ ؟ »

– « من عادتنا يا أبتاه أن نبكى على خراب أورشليم .. ولابد أن ندهن الجبهة من جهة الصدغين برماد الكتان المنقوع فى دم مسيحى ..»

طأطأ البادرى توما رأسه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، لم يكن يدرى ماذا يفعل ، ووقفته أمام الموت رهيبة ، وأشد منها إزعاجًا أن ترتكب الخطيئة الكبرى باسم الدين ، وتذكر اللحظات المذهلة التى ساقوا فيها المسيح إلى الميدان الكبير ، يا لها من لحظات ! ! وشعر البادرى بقليل من الراحة ثم تطلع إلى السماء .. ناجاها بقلبه ودموعه وسمع داود يقول :

– « إننا نحتفل بذكرى صلب الناصرى (المسيح) دائمًا ، لم يكن الناصر هو المسيح الحقيقى .. وتأكد أيها الأب أن المسيح الحقيقى سوف يأتى يومًا ما من أجلنا ، وعند ذبحك سنقول : « هكذا فعلوا بنبى النصارى الذى ليس بنبى حقيقى .. سيأتى فى المستقبل أناس عظماء مع المسيح المنتظر راكبين الخيول والجمال فينقوذنا من الأسر ..»

صرخ الأب توما بأعلى صوته : « أيها الكفرة المخرفون ..»

قال الحاخام أبو العافية : « أربطوا فمه حتى لا يصيح ..»

وعندما ربطوا فمه ، تمتم الحاخام سلانيكلى :

– « يقول التلمود من العدل أن يَقْتُلَ الإسرائيلى بيده كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانًا من لله ..»

كان النسوة والأطفال فى بيت هرارى محتجزين فى الجناح الشمالى للبيت ، والعاقلات منهن كن يعرفن ماذا يجرى هناك ، وجلسن صامتات ، وحينما انبعث أنين الضحية المتألمة ، وقفت إحداهن والفرح المجنون يرتسم على وجهها المكتنز المحتقن وقالت :

- «أتسمعون الأنين ؟ ؟ اضحكوا واسعدوا .. دقوا الطبول وارقصوا ورددوا أجمل الأغانى الدينية .. هذا يوم المنى .. أسعد أيام العمر ..»

وكم كانت دهشتهم حينما رأوا «كاميليا» زوجة داود تلف حول وسطها شالاً حريريًا ثم ترقص فى الحجرة الواسعة وسرعان ما تماوجت حركاتها مع تصفيق الأيدى ، ودقات الدفوف ، وانتشى الأطفال الذين لا يعرفون ما يجرى بروعة ما يشاهدون ، فأخذوا يشاركون فى بلاهة ، ويضحكون ويمرحون ويقلدون النسوة . لم يكن غريبًا أن يحدث الغناء والرقص فى بيت يهودىّ إذ المعروف فى دمشق كلها أن اليهود يقبلون على المرح فى كثير من الأوقات ويعشقون الخمر والرقص والغناء ، بل ويقومون ببعض التمثيليات القصيرة الكوميدية تقليدًا لأهل أوروبا ، إلى جانب أن البيوت المجاورة كلها يملكها اليهود ، فلن يثير الموضوع شيئًا من الشك أو الريبة ، بل إنه سيغطى على صياح الضحية إذا فكر فى طلب النجدة أو الاستغاثة .. بعد أن انتهت كاميليا من الرقص هرولت إلى حجرتها الخاصة لتغير ملابسها ، وبصرت بمراد الفتال وهو يهرول متجهًا صوب باب البيت فدعته إليها فقدم مرتبكًا :

- «أتبعنى إلى حجرتى ...»

- « سيدتى إن داود بالبيت ..»
- « أيها الأحمق .. اتبعنى ..»
- «لقد أرسلنى فى أمر هام ..»
- « دقيقة واحدة وترجع بعدها . ..»

تلفت حواليه فى خوف لم يجد أحدًا ، النسوة معزولات فى مكانهن لا يصرح لهن بالخروج باستثناء كاميليا ، والرجال متجمعون حول الأب «توما » الذى أحكم وثاقه ، ولهذا تبعها مسرعًا ودلف إلى حجرة نومها ، وأغلقت الباب ، ثم تعرّت من ملابسها وتمطت أمام المرآة وقالت : -

- « أنظر يا مراد .. هذا لك كله ..»
- « بالله عليكى اتركينى .. الأمر خطير .. وجسدى كله يرتجف »
- « أعرف ذلك ... هل ذبحوه ؟ ؟ »
- «ليس بعد ..» اقتربت منه وطوقته بذراعيها وقالت :
- «لكم أحبك . ضمنى إليك بشدة . إننى لا أنسى اللحظات التى أقضيها معك .. أعطنى بضع قبلات عابرة .. لقد شربت كثيرًا .. رأسى يدور .. تمنيت أن يحترق العالم كله وأبقى أنا وأنت ..»

قال وهو يتملص فى رقة : « سيدتى ليس لدىّ وقت ..»

ثم نظرت إليه وقد تغيرت سحنتها : «ما هى المكافأة التى وعدك بها داود بعد إتمام ذبح البادرى ؟ »

- «لم يعدنى بشيء بعد ..»

سددت إليه نظرات وحش كاسر وقالت :

- «زعم أنه سوف يزوجك استير .. لقد أخبرنى بذلك ..»

طأطأ رأسه وتفصد جبينه عرقًا ، واشتد شحوب وجهه :

– « هذا أمر سابق لأوانه ..»

ضحكت فى خلاعة وقالت : «تستطيع أن تنصرف الآن ، لكن ثق أن كاميليا لن تُهزم .. إنني أقوى منكم مجتمعين .. وأنا أعنى جيدًا ما اقول .. انصرف أيها الكلب . ولا تتردد كلما دعوتك إلىّ ..»

أعطاها ظهره ثم اتجه صوب الباب لكنها لحقت به ووضعت فى يده مبلغًا من المال كبيرًا ، فابتسم ، أما هى فقد تردد صدى ضحكاتها المتكسرة فى أروقة الحجرة الضخمة ذات الرياش الثمينة ..



الفصل ٨

فى ذات الإنسان، فى داخله العميق المجهول، حيز لا يستطيع الخداع أن يتسرب إليه، إنها منطقة حرام مقدسة الجنبات، كأنما أحاكها الله بأسوار وحواجز لا يمكن أن تخترقها قوة الشياطين، وإلا لماذا يشعر سليمان الحلاق بالخوف الآن ؟ ؟ ولماذا يرتجف قلب الخادم مراد الفتال، حتى الحاخامات والرجال من أسرة هررى يؤدون دورهم البغيض وشيء ما فى داخل كل فرد يقول: «لا ..» ويرفض الانصياع، أليس غريبًا أن يحدث ذلك وهم مؤمنون بأن ما يفعلونه إنما يؤدونه كفريضة دينية نادى بها التلمود وأكدها الأحبار ؟ ؟ إذن لو كان الأمر أمر دين لما حدث هذا التردد، ولا داهمهم ذلك الخوف، ولا أعجزهم الارتباك .. كل واحد منهم يحاول جاهدًا أن يقهر تلك النوازع كى يقضى على التردد والخوف والارتباك، لقد جلس سليمان الحلاق فى دكانه منقبض الصدر، وحينما رأى مراد قادمًا نحوه هب واقفًا وهتف: «هل ألغيتم العملية .. ؟ ؟»

قال مراد وهو يغالب ضعفه ويحاول الظهور بمظهر الشجاع:

«سيدى يطلبك على الفور ..»

«من ؟ ؟» سدد إليه نظرات ساخرة وقال: «داود ..»

وابتلع مراد ريقه واستطرد: «الرجل على الصليب، قد كمموا فاه، وربطوه بالحبال ربطًا محكمًا ...لن يتراجعوا ..»

ابتسم سليمان ابتسامة شاحبة وقال: «أنا قادم معك ..»

– « لا .. بل ستأتى وحدك ..»

– «كنت أريد أن أخبرك ..»

– « بماذا ؟ ؟ »

– «لقد أتى الخادم إبراهيم عمار هو الآخر يبحث عن الأب توما ..»

قال مراد فى لهفة : « وأين هو .. ؟ ؟ »

أشار سليمان بيده فى اتجاه أحد المنازل اليهودية المعروفة وقال : « هنا .. قالوا له إن الأب توما بالداخل .. فأسرع الخادم ..ولسوف يلقى نفس المصير الذى سيلقاه القسيس ..»

وفرك مراد يديه وقال : «كل شيء يمضى على ما يرام .. لكنى خائف ..»

ضحك سليمان فى حزن وقال : «لسوف تتزوج من تحب ، استير فتاة جميلة تستحق أن يُضحى فى سبيلها ...»

شرد مراد إلى بعيد ، تذكر كاميليا تلك الشيطانة الجميلة المثيرة ، هذه المرأة الغريبة التى شرب من كأسها حتى اتخم ، إنه يحبها ويكرهها ، يخاف منها ويأنس إلى جوارها ، أى تناقض يرزح مراد تحته ؟ ؟ أنا مجرد خادم قد تركلنى غدًا .. بل تستطيع أن تدس لى السم وتقضى علىّ فى أى وقت تشاء ، لا أدرى ماذا أفعل ؟ ومع ذلك فأنا أسير فى الطريق .. لا أدرى أين تقودنى قدماى ، لكنها فاتنة ، غجرية الجمال لعوب .. قاتلة .. أى امرأة تلك ! ! استير بالنسبة لها لا شيء .. استير كالشاة الهادئة ..»

قال سليمان : « فيما تفكر يا مراد . أتخاف مثلى .. ؟ ؟ »

رد مراد قائلًا :

- « لا .. تذكرت ما قاله الحاخام بالأمس قال : لا محبة ولا عدل مع المسيحيين . .منِ احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت ، أعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء .. ومن يجادل حاخامه أو معلمه (فى الدين) فقد أخطأ ، وكأنه جادل العزة الإلهية ، أقتل الصالح من غير الإسرائيليين ..»

قال مراد وهو يبتسم فى لا مبالاة :

- « أعرف ذلك كله .. لطالما ردده الحاخامات على مسامع سيدى ، كنت أستمع إليهم وأنا أصب القهوة أو أعد النرجيلة .. لكنى لا أفكر فى شيء من هذا ..»

- « فيم تفكر إذن »

- « فى استير ..»

- « لسوف تتزوجها ..»

- « هى مسكينة وتعلم كل شيء .. هذه الشاة الصغيرة تعرف تصرفاتى وانحرافاتى ..»

هز سليمان كتفيه دون أن يفهم شيئًا بينما هتف مراد فى عجلة :

- « لقد نسينا أنفسنا .. أسرع إلى دار داود ..»

- « لسوف أحضر الموسى ..»

- لا داعى لذلك ..»

ذهب الخواجا « سانتى » صيدلى المستشفى إلى دير الأب توما كى يعيد كتابًا كان قد استعاره منه ، لكنه فى ذلك المساء (الأربعاء) وجد الدير مغلقًا ..،طرق الباب فلم يجبه أحد ، أخذ يطوف حول الدير فلم

يسمع صوتًا لصديقه ولا حسًا لخادمه إبراهيم .. شيء غريب .. ومع ذلك فقد قرر أن يعود من حيث أتى ، وأثناء رجوعه ، مال على الدير الكبير «تير سانت» وأخبر الرهبان هناك بأن البادرى توما وخادمه إبراهيم لم يعودا حتى هذه الساعة ، فلم يكترثوا للأمر ورجحوا أن البادرى ربما يكون قد ذهب لمعاونة بعض المرضى وكثيرًا ما يحدث ذلك لأنه لا يرفض طلبًا للمساعدة من أحد .

ودمشق تنام ، والعسس يمضون فى الطرقات يحكمون ستراتهم لأن نذر البرد تلامس آذانهم المكشوفة ، وعندما تنام دمشق فهو نوع من النوم غريب ، لآن الآلاف يتقلبون فى الفراش يفكرون ويتدبرون ، ويتذكرون الماضى والحاضر ، ويحاولون أن يستشفوا حجب المستقبل .. الأحداث كثيرة .. ولو استطاع أحد الدارسين أن يبحث أسباب الأرق فى آلاف البيوت لوجد عجبًا . .شاب يحلم بفتاة حلوة أحبها قلبه .. رجل يريد أن يأخذ بثأره ، وخيالات الدم تلعب برأسه .. تاجر تمتلئ رأسه بالأرقام ويطرح ويضرب ويقسم ، سياسى يخطط لمزيد من السيطرة والنفوذ ، ويبحث عن وسيلة لتحطيم أعدائه ، فتاة كالزهرة تحتضن وسادة حريرية وتترنم بأغنية شعبية .. امرأة تخون ، رجل يسرق ، شيخ يقوم الليل ويضرع إلى الله ، سجين ترهقه القيود والأغلال ، ويستنجد بالسماء كى تفك إساره .. سكران يضحك ملء شدقيه وكأنه حاز الدنيا بأسرها ، مريض يتلوى من شدة الألم ، شاب يتراقص من شدة الفرح ، دنيا غريبة ممتلئة بالكثير من المتناقضات والأعاجيب .. لكن الأمور تمضى والموكب يسير .. وهذا الخليط الكبير يعزف سيمفونية ذات نغمات مختلفة .. لكنها تعطى لحنًا

واحدًا مميزًا اسمه «الحياة» ومن يستطيع أن يدلف إلى دار داود هرارى يرى عجبًا .. امرأة تبصق على فراشها الحريرى .. وأطفال يغطون فى نوم عميق، ودود يتقدم من البادرى المربوط، ويرفع الرباط عن فمه ليعود إلى الحديث المكرر ..يتلذذ بعذاب صديق العمر ..

– «ماذا تريدون .. ؟ ؟»

– «لا شيء . .يا توما .. مجرد استجواب ..»

– «إنى أشم رائحة الغدر ..»

شحك .. وسخرية .. وتبسم داود

– «نحن أصدقاء يا توما ..»

– «هذا أسلوب غريب بين الأصدقاء ..»

– «هناك أوقات يا توما .. لا يعرف فيها الصديق صديقه ولا الأخ أخاه ..»

– «لا أفهم .. الناس جميعًا إخوة ..»

– «الناس بهائم وحيوانات يا توما إلا الإسرائيليين . .قلت لك ذات ألف مرة ومرة، هكذا قال التلمود» .

– «التلمود لم ينزله الله .. الفرق كبير بين كلمات الله .. وسخافات البشر ..»

التف داود إلى هارون وقال : «الرجل يسيء الأدب وهو على أعتاب الموت ..»

صاح البادرى فى صبر نافذ : «اقتلونى»

– «ليس الآن ..»

- « أريحونى من هذا العذاب ..»

- « هذا مشهد يبعث البهجة فى النفوس ..»

- « وأنا لا أخاف الموت يا داود ..»

- « لا تحزن ..سأدفنك هنا فى بيتى .. سأقرؤك السلام كل يوم .. ستبقى جثتك هنا إلى الأبد .. سنظل أصدقاء برغم الموت وبرغم فظاظتى معك » .

همَّ البادرى أن ينزع نفسه من الوثاق المحكم ، وضحك الرجال وصاح الحاخام أبو العافية :

- «كمموا فاه من جديد .. ها قد جاء سليمان الحلاق ..»



الفصل ٩

دمشق المدينة تبدو كالأرملة التعسة، تحاصرها العيون، وتلاحقها الشائعات بعد أن مات عنها زوجها، ودمشق تجلس كابية حزينة تجتر الآلام، ويمضها الملل، ويؤرقها الضياع والفراغ، ولذلك كان حادث اختفاء البادرى توما وخادمه إبراهيم عمار فرصة تشغل الأذهان، ووسيلة لقتل الوقت والتغلب على الفراغ المميت، ففى اليوم التالى - الخميس - كان الدكتور مسارى وهو من الشخصيات الأجنبية المرموقة فى دمشق يجلس فى منزله انتظارًا لعدد من الرهبان وعلية القوم، فقد أعد لهم وليمةً فاخرةً ظُهر ذلك اليوم، وحضر الجميع ولم يبق إلا البادرى توما .. وحان وقت الغداء لكن البادرى لم يحضر، ولم يبعث باعتذار رقيق كعادته .. بل لم يعثر له على أثر، وهنا لعب الشك بالنفوس، وعم القلق جميع الحاضرين، وليس عجبًا أن يحدث أى شيء فى مثل تلك الأيام، هذه الفترات العصيبة من حياة الشعوب تكتظ بالمفارقات الغريبة، وتحدث فيها العجائب، وتكثر الانحرافات، وصاح الصيدلى «سانتى»:

- «أيها الرجال الأمر خطير ولا يمكن السكوت عليه ..)؟

وتهامس الحاضرون ثم علا نقاشهم حتى تحول إلى ضجيج واضح، وقال الدكتور مسارى وقد انتصب شاحب الوجه:

- «شهد البعض أن آخر مرة رأوه فيها كان فى حارة اليهود ..»

وأدرك الجميع ما يهدف إليه السنيور، فرد أحدهم على الفور:

- « ماذا أقول ؟ الشبهات تحوم حول اليهود ..»

وقال آخر :

- « لا نتعجل فى الاتهام ..» وعلق رجل طاعن فى السن :

- « اثنان من اليونانيين شهدا خادم البادرى يهرول إلى حارة اليهود عند الغروب وقد أخبرهما أنه يبحث عن سيده .. والخادم اختفى هو الآخر ...»

قال الدكتور مسارى : «لنرفع الأمر إلى القنصلية الفرنسية فالبادرى تحت حمايتها ويحمل الجنسية الفرنسية ..»

حينما بلغ النبأ مسامع القنصل الفرنسى ، كان قد انتشر بين أبناء المدينة كلهم ، وحدث هرج ومرج ، وتدفق الناس من كل صوب نحو دير البادرى ، وأخذوا يلقون الكلمات جزافًا ، وأشارت أصابع الاتهام نحو حارة اليهود « هذه الحارة دولة داخل الدولة » « هذه الحارة بحر عميق من الأسرار » « هل نسيتم المذابح التى يقيمها اليهود من آن لآخر باسم الدين ؟ ؟ »

وأمر القنصل الفرنسى أحد الرجال أن يصعد سلمًا خارجيًا ويتخطى جدار الدير الذى يسكنه البادرى ودهش الجميع إذ وجدوا أن الباب لم يغلق بالمفتاح وإنما بالمزلاج الصغير ، كما وجدوا طعام العشاء مجهزًا فى المطبخ بجوار الكانون ، وليس لذلك سوى معنى واحد وهو أن البادرى وخادمه كانا قد اتفقا على سرعة العودة لتناول العشاء المعدّ .. وجال القنصل ومن معه فى أنحاء الدير فلم يجدوا أى مظهر من مظاهر الاضطراب أو العبث .. المال .. الملابس إذن لم تحدث سرقة أو مجرد محاولة للسرقة وصاح رجل : -

« أقسم أن البادرى وخادمه قد قتلا ..» ورد عليه آخر « ولم يفعلها سوى اليهود ..»

ووقف أحد الرهبان من « دير تير سانت » وأخذ يشرح للحاضرين كيف أن اليهود كانوا يشترون الأسرى المسيحيين من الفرس الذى غزوا القدس على أيام « هرقل » ملك الروم، وكيف أنه فى أيام السلطان سليم الثالث اختطف اليهود طفلًا يونانيًا وذلك لاستنزاف دمه، وثبتت ضدهم التهمة باعترافهم وشنق ستون منهم .. وعلق كل عشرة فى شارع من شوارع المدينة ... وحدث مثل ذلك فى انجلترا .. وفى فرنسا ارتكبوا جريمة مماثلة، وقد حضر ملك فرنسا آنذاك « فيليب أوغسطوس » وأشرف على التحقيق، وبعد ثبوت التهمة أصدر حكمه بحرق المتهمين، وأصدر مرسومًا بطرد جميع اليهود من فرنسا .. وأيضًا حدث شيء من هذا القبيل فى ألمانيا .. فالقصة أيها الأصدقاء قديمة ومكررة وهى من صميم شعائرهم التى ابتدعها حاخاماتهم وأحبارهم وأثبتوها فى التلمود، ولا تنسوا أن عيد اليهود قد اقترب، وفى هذا العيد يفكرون دائمًا فى الفطير المقدس المعجون بدم المسيحيين ..»

وصرخ البعض احتجاجًا واستهوالًا للبشاعة، وسأل واحد من المسلمين :

– « أيها الأب .. ألا يفعلون ذلك بالمسلمين أيضًا .. ؟ ؟ »

هز الأب رأسه قائلًا : بعض شراح التلمود يزعمون أنه يجوز سفك دم المسلمين، وحجتهم فى ذلك أن كثيرًا من المسيحيين دخلوا الإسلام ..»

وابتلع الراهب ريقه وقال فى انفعال :

– «إن شعائرهم تفضل الذكر على الأنثى فى مسألة الدم، ويفضلون الطفل عمن عداه، ويعتقدون أن فى الدم المسيحى خلاصًا لنفوسهم ..»

وقال رجل سورى تلقى تعليمه الدينى برواق «الشوام» بالأزهر الشريف «عندى بذلك علم .. فاليهود يفعلون ذلك كثيرًا .. لكن يجب ألا نتعجل فى نشر الاتهام ..»

فهاج عدد من الحاضرين وصرخ أحدهم : «يا مولانا لقد أجمع الشهود على رؤية البادرى وخادمه لآخر مرة فى حارة اليهود ..»

– «لا تصدروا حكمًا إلا بعد التحرى والدقة .. هكذا يكون العدل» .

وصاح شاب مسلم :

– «لا عدل مع من لا يعرفون العدل ...»

وتحرك الجمع الصاخب نحو المدينة، ساد الذعر جنبات حارة اليهود، وأقسموا الأيمان المغلظة بأنهم لا يعرفون شيئًا عن البادرى وخادمه، وإنما الرجل المفقود صديقهم الحميم، وهم يحبونه أعمق الحب، بل تطوع أحدهم برصد مكافأة مقدارها خمسون ألف قرش لمن يظهر البادرى أو يدل عليه حيًا أو ميتًا .. ولجأ اليهود إلى المسئولين يطلبون الحماية، وينفون التهمة بشدة، ويؤكدون أن هناك بعض المغرضين الذين يريدون إثارة الفتنة بين الناس، ويهدفون إلى إشاعة الاضطراب والفوضى فى أرجاء المدينة، لكن قنصل فرنسا كان له رأى آخر، فقد كتب مذكرة ضافية عن ظروف اختفاء البادرى وخادمه، واتهم اليهود صراحة بأنهم هم المسئولون

عن اختفاء الرجل ، ورفع المذكرة الضافية إلى « شريف باشا » والى دمشق الذى أمر على الفور بأن يذهب « التفتيشجى باشا » إلى حارة اليهود ليبحث عن المفقودين ، وأعطاه الصلاحيات الكاملة لدخول أى مكان ...

انسكبت الدموع من عينى اليهودى الصالح « داود » :

- « لا أستطيع أن يكون البادرى قد أصابه سوء .. إنه آية من آيات المحبة والوفاء ولا تجرؤ يد أن تمتد إليه بأذى ..»

ولم يسفر البحث والتقصى عن العثور على شيء ، وأخذ الناس يضربون كفًا بكف ، بينما لجأ اليهود إلى بيوتهم خوفًا وهلعًا ، حتى تنجلى الغمة ويسود الأمن والهدوء ، وخاصة أن بعض المتحمسين من شباب المسيحية والإسلام قد هددوا بالانتقام .

تنهد داود هرارى فى ارتياح حينما وصل إلى بيته وأمر خادمه مراد الفتال بأن يحكم إغلاق الباب ، وأن يظل يقظًا لأية حركة ، مخافة أن يدهمهم أحد المعادين على حين غرة ، وطلب منه أن يقف خلف الباب لا يغادره لأى سبب من الأسباب ، وأقبلت كاميليا يفوح من أردانها العطر ، وتواكبها الفتنة الطاغية ، وقميص النوم الوردى يكشف عن مفاتن جسدها المثير ، وجلست أمام داود على السرير الموشى بالفضة المغطى بالحرير ، ثم أعطته ظهرها وألقت برأسها على صدره ، وأخذت تعبث بشاربه ، كان فى غاية من الضيق لا مثيل لها ، ولما لم يستجب لمداعبتها وعبثها همست بصوت حنون : « هل أصب لك كأسًا من الخمر .. ؟ ؟ »

- « لا أريد شيئًا ..»

- « إذن قبلني ..»

أراد أن يسكتها ، فطبع قبلةً باردة على جبينها » .

- «يا لك من رجل غريب الأطوار .. أنا لست طفلة .. انظر إليّ جيدًا ..»

دفعها عنه بهدوء وتمتم :

- «ليس هذا وقته ..»

- «متى نأكل الفطير المقدس ؟ ! إن ثقتي بمفعوله السحري لا حد لها ..»

هبَّ واقفًا وصرخ :

- « لا تذكري هذا الأمر ..»

- «ما الذي يكربك ؟ ؟ قريبًا تخف الضجة .. وينسى الناس كل شيء .. عندئذ يعود إليك شبابك ..»

قال في ضيق : « أنت تتكلمين في جرأة وقحة ..»

- « أنت زوجي ..»

- « ألزمي جانب الأدب ..»

- « ألا يحق للزوجين أن يتبادلا عبارات الغزل » :

تمتم ببيت شعر قديم شهير من الشعر العربي :

أبيت أسرى وتبيتي تدلكي
شعرك بالعنبر والمسك الزكي

همست في دلال :

- « أنا لا أحب الشعر .. فلنغرق أسانا في الكأس والعبث ..»

دفعها هذه المرة في عنف وقال :

- « إليك عنى .. إن جفونى لم يقربها النوم ليلة أمس .. وأنت كنت تغطين فى نوم عميق ..»

تمتمت فى غيظ :

- «مسكين .. ليتك مثلى تعيش لحظتك الراهنة وتنسى ما عداها .. بذلك نسعد بحياتنا » .

لشد ما يكره كاميليا الآن ، ليس لوجودها هنا ، هى فى وادٍ وهو فى واد آخر ، هى تضج أنوثة وحيوية وتعيش كالسكرى ، وهو يتمزق وهنًا وقلقًا وكمدًا ، إنهما غريبان يفصل بينهما صحارى واسعة من فارق لعمر والاهتمامات والآمال ، لكنه جاهد غضبه وحاول أن يسترضيها فقال :

- «يا حبيبتى .. إن الأمر خطير .. إننى أعانى من الهموم ما لا يطيقه بشر .. فلتحترمى أحزانى وآلامى .. وأمامنا فسحة من الوقت بعد ذلك ..»

وقبل أن تجيب عليه بكلمة سمع صوت هارون هرارى ينادى :

- «داود .. داود .. الكارثة على الأبواب ..»

وثب من فوق سريره ، وفتح الباب ووقف شاحب الوجه ، قلق النظرات ، وهمس فى ضعف :

- «ماذا جرى ؟ ؟»

قال هارون : «لقد قبضوا على سليمان الحلاق وساقوه إلى التحقيق ..»

صرخ داود فى ذعر : «مستحيل كيف تسرب الأمر .. ؟ ؟ »

- « إلى أين .. ؟؟ »

- «يجب أن نواجه الكارثة لنقضى عليها قبل أن تطبق علينا بجناحيها السوداوين ..»

- «ماذا ستفعل .. ؟ ؟»

- «سأتصل بسليمان وأمنيه الأمانى وأؤكد عليه بألا يعترف بشيء مهما كان الأمر ..»

تنهدت كاميليا فى ارتياح بعد أن خرج زوجها ، وابتسمت وسرت قشعريرة فى بدنها وهى تفكر فى الخادم مراد الفتال .



الفصل ١٠

قال حاذق بك المشرف على التحقيق فى قضية اختفاء البادرى توما وخادمه :

- «إن أمامنا خيط رفيع قد يوصلنا إلى الجناة، ونرجو ألا ينقطع . إنه مجرد بصيص من النور قد يلقى ضوءًا على الفاعل ..

لقد لاحظنا أن إعلانات المزاد التى كان يلصقها البادرى بنفسه يوم الأربعاء الماضى موجودة فى كثير من الأماكن وخاصة الكنائس منذ يوم الأربعاء ، لكن يوجد إعلان لم يلصق إلا بعد يومين على باب سليمان الحلاق اليهودى ، الذى يقع محله بجوار كنيس اليهود ، فلماذا تأخر وضع هذا الإعلان بالذات ؟ لا تسخروا منى ، فإن أول الغيث قطرة ثم ينهمر ، اقبضوا على سليمان الحلاق وأحضروه إلىّ على الفور دون أن يشعر بذلك أحد ..»

حينما دهموا سليمان فى محله ، كان يحلق للزبائن فى هدوء غريب ، لم يكترث لما يراه ، وعندما قال له «التفتيشجى» «تعال معنا» أظهر استغرابًا ودهشة ، ليس الأمر إذن مجرد تدقيق عابر ، لماذا اختاروه هو بالذات ؟ هل فعلها أحد الخونة ووشى به ؟ مستحيل . . إن انكشاف الأمر يعنى الخراب والدمار بالنسبة للجميع ، سوف يساق الحاخامات وأسرة هرارى إلى الجحيم .. لا .. قد يكون هناك مجرد شك ، والحلاق معروف بأن محله مأوى للكثيرين «ربما استدعونى ليعرفوا الشائعات التى تتناثر هنا وهناك ، أو لعلهم ظنوا أن حلاقًا مسكينًا مثلى ، يستطيعون الضغط عليه ، والحصول منه على

معلومات ، وهذا أمر بسيط ، أستطيع أن ألعب بهم أو أدعى البلاهة ما دام المحققون لا يملكون أدنى دليل ضدى ..»

ومع ذلك الاطمئنان الظاهرى الذى حاول به سليمان أن يهدئ من روعه إلا أنه كان يسير فى الطريق كالمنوم أو المخدَّر ، عيناه زائغتان وقدماه تتعثران فى الطريق الطويل ، وقلبه يضرب فى عنف ، حتى يكاد الرائى أن يشهد الضربات تحت ثيابه ، وأنفاسه لاهثة ، وشعور بالاختناق يطبق على صدره وحنجرته ، حاول أن يتحدث بأى كلام ، فاحتبست الكلمات فى حلقه ، وأخذ يبتسم فى بلاهة تثير الشك والريبة ..

وحضر الوالى شريف باشا بنفسه وأحضروا له سليمان الذى أنكر علمه بأى شيء ..

– «ما هى معلوماتك يا سليمان عن الإعلان ؟»

– «الأب توما وضع إعلانات على دكانى وانصرف» .

– «بأى برشانات ألصقها البادرى .. ؟»

– «ببرشان أحمر وآخر ليلكى (بنفسجى غامق) » .

– «كيف عرفت هذه الألوان مع أنها تحت الورقة ؟ ؟ ولماذا وضع الإعلان فى مكان مرتفع ؟ وكيف وصل الأب توما لهذا المكان المرتفع ؟ ؟»

قال سليمان وقد داهمه ارتباك ظاهر :

– «كنت أرى المارة يعبثون بالإعلان ويلمسونه ، فخفت عليه من التلف والضياع ، فأخذته من محله الأصلى وألصقته فى مكانه الحالى ..»

- «ألا تعلم أن باقى الإعلانات كانت ملصقة بطريقة مغايرة للطريقة التى لصق بها الإعلان على باب محلك .. ؟؟»

- «كيف .. ؟؟»

قال شريف باشا :

- «الإعلانات الموجودة على الكنائس الفرنساوية وجدت ملصقة بأربعة قربانات من القربان المستعمل عند الرهبان والرهبان عادة لا يستعملون البرشان العادى ..»

قال سليمان وقد حاصرته التهمة :

- «لا أدرى ..»

صرخ شريف باشا فى غيظ :

- «أنت تعرف الحقيقة ..»

- «الحقيقة لا يعلمها إلا الله ..»

- «لقد أمرنا الله بالعدل ..»

- «اعرفُ يا مولانا ..»

- «وقد أهدر دم رجل برىء صالح دون جريمة ارتكبها ..»

- «هذا حرام ..»

- «ولابد أن يظهر الحق ..»

- «أتمنى ذلك ..»

ودق شريف باشا بقبضته على منضدة صغيرة :

- «نحن مسئولون عن حماية أرواح الناس ومحاصرة الجريمة ..»

- «لقد قلت ما أعرف .. وليس لدى جديد .. أضيفه ..»

سدد إليه شريف باشا نظرات ملتهبة وقال :

- «سنعرف كيف ننطقك بالحقيقة خذوه ..»

وسيق سليمان إلى الحبس الانفرادى ، لكن داود هرارى استطاع أن يلتقى به أثناء ترحيله إلى السجن «احذر يا سليمان .. لقد قررنا أن نعطيك مبلغًا من المال ، تعيش به سعيدًا طوال حياتك .. ولا تنس أن أوامر ديننا يجب أن تحترم ، لا اعتراف حتى لا يعاقب إسرائيلى أنت تعرف ذلك ..»

حينما جلس سليمان الحلاق وحيدًا فى زنزانته المظلمة حط على قلبه حزن ثقيل ، الوحدة والانتظار والخوف تحالفت كلها لسحق مشاعره ، وطمس معالم المستقبل أمامه ، شعر بضيق بالغ ، تذكر بيته وزوجه وأبناءه وأباه ، تذكر اللحظات الهنيئة التى يقضيها فى محله يحلق الشعر أو يفصد الدم وتساءل بينه وبين نفسه : لماذا لا تكتفى الديانة بالدم المفصود بدل القضاء على الضحية .. ؟ ؟

الأخطر من ذلك كله أن نوازع من الشك أخذت تراود خياله ، بدأ يشك فى صحة كلام الحاخامات وصحة شروح التلمود ، ها هى عقيدته تتزعزع .. لا .. يجب ان يتماسك ويكون مثالاً لليهودى الثابت على مبدئه ، يجب أن يصمد للفتنة ويواجه العاصفة بقلب مؤمن ، إذا كانت ديانته على حق فإن الله سيحميه وينصره ومع ذلك فإن الشك يراوده . وبدا الكفاح من أجل مبادئ التلمود أمرًا هزيلًا ، بل حماقة كبرى ، إن العبء ثقيل والتضحية باهظة لتكاليف ، وسليمان يريد أن يعيش ، لماذا دس أنفه فى مشكلة كهذه ؟ ؟ آه .. نظرات القس الذبيح

تطالعه الآن فى ظلام الزنزانة .. فى العيون ضراعات قاتلة يا إلهى !! والرجل شاحب الوجه يستنجد بالمروءة ولا أحد يجيبه يا إلهى !!.. كان استسلام القسيس رهيبًا .. ما أقسى استسلام الضعفاء حينما يساقون إلى الموت ظلمًا .. وأخذ سليمان يتلفت فى الزنزانة يمنة ويسرة .. يحاول أن يهرول من الأشباح التى تملأ عليه أفقه الأسود .. أيها الأب توما .. أنا لم أرد أن أسيء إليك .. لا تنظر إلىّ هكذا أنا عبد أنفذ ما يامرنى به كبار الرجال .. قرأوا لى فى التلمود .. حشوا رأسى بالكلمات المقدسة ، وأنا إنسان جاهل .. فقير مسكين ..»

انتبه سليمان إلى نفسه ، إنه يهذى ، أحيانًا يتكلم بينه وبين نفسه ، وأحيانًا أخرى يرتفع صوته على الرغم منه ، تحسس الجدران الباردة ، ووضع خده على الأرض ، ثم أخذ يدق الأرض ويدق رأسه فى هستيرية ويصرخ « أنقذونى .. أكاد أموت .. الرحمة » قدم السجان ، نظر إليه بعينين يتقد منهما الشرر .. وللسجان سحنة متميزة لم يعرفها سليمان من قبل ، ركله السجان فى غلظة ثم هدر :

– « لا أريد أن أسمع صوتك .. أتفهم .. ؟ ؟ »

انكمش سليمان كفأر مذعور .. رفع عينيه فى ضراعة ثم هتف :

« أليس لك أولاد ؟ »

– « أتريد أن تذبحهم .. ؟ ؟ »

– « أنا مسكين ، أنا لم أرتكب جريمة ..»

– « انحنى السجان صوبه وأمسك بكتفه ثم جرّه خارج الزنزانة :

- «خير لك أن تعترف .. أنا أعرف جيدًا كيف أقنعك بقول الحقيقة .. وشريف باشا وعد بالعفو عنك إذا اعترفت .. وسيكتب لك «فرمانًا» بذلك .. إنها صفقة رابحة .. ولابد يومًا ما أن تعترف ، لكن الاعتراف اليوم له قيمة .. وغدًا لا قيمة له .. أنت ذكى وتفهمنى» .

أحنى سليمان رأسه وقال «لا أستطيع الصبر .. لا أستطيع ..»



الفصل ١١

الخديعة الكبرى التى وقع فيها سليمان هو أنه كان يظن أن النجاح كان حليفه، ولن يستطيع أحد أن يميط اللثام عن الجريمة، وكيف لا يطمئن باله وهو يرى أنها دبرت بليل، وأشرف عليها جمهرة من كبار رجال الدين والمال، وأن آثارها قد عفى عليها تمامًا ؟ ؟ فهو لم يشارك فى الجريمة شجاعة منه أو استهتارًا بما يتبعها من نتائج، وإنما شارك ثقة منه فى عدم القدرة على اكتشافها، أما وأن أصابع الاتهام تشير إليه والشبهات تحاصره من كل جانب، والدائرة تضيق من حوله، فلابد أن يفكر تفكيرًا عاقلًا رزينًا، فالزنزانة شديدة السواد مخيفة، والوحدة قاتلة، وهو يخاف عيون السجان ونظراته القاسية، وثقته فى كلمات الحاخامات أصبحت ضعيفة، واحتماؤه برجال المال - ذوى السلطة والنفوذ - لم تعد ذات جدوى، فلماذا لا يفكر بمنطق التاجر ؟ لماذا لا يفكر فى مصلحته الذاتية دون اعتبار للواجبات الدينية أو علاقات الصداقة ؟ ؟

قال سليمان حينما أحضروه أمام المحقق :

- «لقد رأيت الأب توما عند العصر يسير مع داود هرارى وأخويه هارون وإسحاق، ويرافقهم يوسف لينيادو والحاخام أبو العافية والحاخام سلانيكلى.. وكانوا جميعًا داخلين فى شارع الثلاج المتفرع من حارة اليهود حيث يوجد منزل داود، ويستطيع الباشا أن يستحضرهم لكى أعترف أمامهم بذلك، وأواجههم بالحقيقة، هذا وقد

مر هنا منذ فترة وجيزة «إسحاق بتشوتو» صديق آل هرارى، وهو تحت الحماية النمساوية، وسألنى هل اعترفت بشيء ؟ ولما أجبته سلبًا قال لى: «سأتوسط فى خلاصك» وتركنى ومضى.. ولو كنت أعلم أن مواعيده مواعيد عرقوب لكنت اعترفت فورًا..

كان هذا الاعتراف على الرغم من أنه لم يكن كاملًا، ذا أهمية بالغة، فإن الحقيقة ستتكشف رويدًا رويدًا، وصدر أمر الباشا باستدعاء الأشخاص الذين ذكرهم سليمان الحلاق، وكانوا فى رفقة البادرى المفقود.. أبدى داود دهشته حينما رأى رجال الدولة، وعلى رأسهم «التفتيشجى باشا» يطرقون بابه، وتمتم فى شحوب وهو يسرع بارتداء ملابسه «يا للكارثة ؟: يبدو أن سليمان قد انهار».
ونظرت إليه زوجه كاميليا فى رعب وهتفت:

– «ما معنى ذلك ؟ ؟»

– «اتهام . . .»

– «شبهة أم اتهام ؟!»

– «من يدرى ؟ قد تكون تحرياتهم قد أثبتت أن البادرى كان يسير معنا، وفى مثل هذه الحالة يكون الإفلات سهلًا.. فنحن جميعًا متفقون على الإنكار ..»

قالت كاميليا والدموع تبلل أهدابها:

– «ومتى ستعود.. ؟ ؟»

تنهد فى حسرة وهمس:

– «ليتنى أعلم ..»

تشبثت بأذيال ثوبه، وأخذت تقبل وجهه وعنقه ويديه وصرخت:

– «لن أتركك .. لسوف آتى معك ..»

استنكر كلماتها وهتف :

– «مستحيل .. ماذا يقول الناس ؟ ؟ »

– «كيف أحيى بدونك .. ؟ ؟ ؟»

– «نحن لم نرتكب خطيبة ، لقد نفذنا أوامر الديانة .. ولن يتخلى عنا الله ..»

كان يعزى نفسه فى الحقيقة ، بل يحاول جاهدًا أن يقهر عوامل الضعف والخوف والندم التى أخذت تشيع فى جنبات قلبه وعقله ، تمامًا كما حدث لسليمان وهو فى زنزانته المظلمة ، إنها لحظات تصيب الكثيرين من رجال العقائد عندما يتعرضون لهزات عنيفة ، أو زلزلة قوية ، فتجعلهم يعيدون النظر فيما يؤمنون به ، وهم فى هذه الأوقات يحاولون التشبث بمبادئهم ، على علاتها الخاطئ منها والصحيح ، لأنهم يشعرون فى داخلهم أن نذر التردد والشك تداهمهم فجأة .

وتمتم داود : «يجب أن يختفى مراد» وليته يستطيع الهرب .. إننى لا أثق فى الخدم ، وهم سريعوا الانهيار .. مثله مثل سليمان حسبما أعتقد .. يجب أن تهتمى بذلك يا كاميليا ..»

قالت فى ثقة : «اطمئن سأخفيه ولن يعثر عليه أحد إلا بأمرك» وما أن انصرف داود مع «التفتيشجى» حتى أسرعت كاميليا باستدعاء مراد الفتال ، كانت تجفف دموعها ، وتشعر برغم كل شيء بمرارة شديدة من أجل زوجها المسكين ، إنها تكره فى زوجها أشياء كثيرة ، لكنها فى هذا الوقت بالذات شعرت أنه زوجها أبو أولادها ، وعماد

بيتها ، هناك نوع من الرابطة لا يموت مهما اختلفت الأمزجة، وتضاربت المشاعر بين الزوج وزوجه ، لقد رأت زوجها يمضى ذليلاً خائفًا وسط رجال «التفتيشجى»، فتمزق قلبها ألمًا وحسرة، وكاميليا لا تفهم تفسيرًا لما يعتمل فى نفسها ، ومن ثم فهى تترك مشاعرها ، تنطلق حسب هواها .

قال داود هرارى عندما وقف أمام الباشا :

– «لم أنظر الأب توما منذ شهرين أو ثلاثة ، وليس من عادتى الاختلاط بهؤلاء الخواجات .. منزلى فعلاً فى شارع الثلاج ولكنى لا أعرف شيئًا عن ذلك اللقاء المزعوم ...»

أما يوسف لينيادو فقد تلعثم قليلاً ثم قال :

– «كنت فى منزلى ولم أخرج إلا يوم الخميس قرب الظهر ، لأن ابنتى توفيت منذ خمسة عشر يومًا ، وعادتنا ألا نخرج من منزلنا مدة سبعة أيام ، عند وفاة أحد أقاربنا ، وبناء على ذلك فأنا لا أعلم شيئًا عمّا أسأل عنه الآن»

أما إسحق هرارى ، شقيق داود ، فقد قال فى ثقة وتأكيد :

– «لا معلومات لدى . أنا تاجر مشغول بتجارتى .. هى كل شيء فى حياتى ...»

أما العجوز يوسف هرارى فقد سعل ، ثم قال فى وهن :

– «منزلى فى شارع الثلاج ، وأنا لا أخرج إلا نادرًا بسبب تقدمى فى السن ، لم أقابل الأب توما منذ ثلاثة شهور .. آه .. لقد ربيت بي المسيحيين .. ينامون عندى وأنام عندهم .. آكل من طعامهم ويأكلون

من طعامى .. نحن إخوة أحباء برغم اختلاف الديانة ((. . ورفع الحاخام موسى أبو العافية رأسه فى اعتزاز ظاهر وتمتم :

– «لم أقابل أحدًا ممن ذكرهم الحلاق منذ ست شهور ، ومن المحتمل أن نكون قد تقابلنا مرة بمحض الصدفة ثم افترقنا ، غير أنى لا اذكر ذلك مطلقًا .. والإنسان مطبوع على النسيان .. وبخصوص الأب توما فأنا لم أره منذ شهرين تقريبًا ..»

وتقدم هارون هرارى قائلًا :

– «منزلى مجاور لقنصلية انجلترا ، ولا أذهب إلى إخوتى فى حارة اليهود إلا نادرًا ، لم أتقابل مع الحلاق منذ ثمانية أيام .. أنا من الأشخاص ذوى السلوك الحميد .. لم أجتمع مع هذه الجمعية ، هذه التهمة ملفقة ضدنا .. ربما قال الحلاق سليمان ما قاله مخافة الضرب»

أما الحاخام الثانى موسى سلانيكلى فقد أنكر كل شيء بالكلية ...

وواجهوا المتهمين بسليمان الحلاق الذى أصر على أقواله ، بينما أخذ المتهمون يتقدمون إليه واحدًا واحدًا ويقولون :

– «لماذا تفترى علينا يا سليمان يا حبيبى ، اطلب من الله أن ينقذك مما أنت فيه ... لا يمكنك أن تصمم على هذا الكلام المخترع .. !!»

لم يزل الطريق إلى كشف غوامض الجريمة محفوفًا بالصعاب ، أيمكن أن يكون سليمان كاذبًا فيما ادعاه ؟ وهل بينه وبين الذى اعترف عليهم عداوة شخصية أو يريد ابتزاز الأموال منهم ... ؟ ؟ إن كل الشواهد تؤكد أن علاقة سليمان بالمتهمين لا غبار عليها ، وإن الصلة بينه وبينهم وطيدة منذ زمن بعيد ، وهم يثقون به ويثق بهم ،

وجميعهم من زبائنه سواء فى مجال الحلاقة أو الحجامة .. وتمتم «حازق بك» المشرف على التحقيق :

- «سليمان يخفى الحقيقة .. ومعنى هذا أنه ضالع فى الجريمة ..»

«ثم أمر بحبس جميع المتهمين فى الزنزانات الانفرادية بحيث يتعذر أن يتصل أحدهم بالآخر، ثم أتى بسليمان وأصدر أمره باستعمال الكرباج .. فصاح سليمان فى خوف «لا .. سأقول كل شيء ..»

وأحاطت به العيون وتلهفت الأسماع، لقد مضى على التحقيق حوالى تسعة أيام دون فائدة تذكر، ودمشق كلها ساهرة حائرة، الناس يتساءلون، وعلامات الاستفهام ترتسم على الوجوه فى الشوارع وفى البيوت والمحلات التجارية .. فى المزارع .. فى القنصليات، وقنصل فرنسا يرسل تقارير يومية إلى باريس .. ولابد أن يجيب التحقيق على علامات الاستفهام التى تنطلق فى كل مكان .. وإلا حدثت كارثة دموية ..



الفصل ١٢

لم يستطع المحققون أن يقبضوا على اليهودى المعروف «بتشوتو» ، وهو رجل داهية غريب يعمل موظفًا كبيرًا فى القنصلية النمساوية ، وهو أحد رعاياها ، وقد كان يُظن أنه وثيق الصلة بجريمتى قتل البادرى وخادمه . حتى بعد أن اعترف سليمان بأن «بتشوتو» حذره من الاعتراف ووعده بالخلاص نفى «بتشوتو» التهمة بشدة ، واحتج على ذلك ، بل كان يرد على أسئلة المحققين فى تبجح وصفاقة .. هذا الذئب الداهية عندما فكر فى الأمر أدرك أن سليمان على وشك أن يلقى أمام المحققين الحقيقة كاملة ، ففكر هو وجماعة من اليهود أن يقوموا باغتيال سليمان الحلاق ، حتى ينقطع خيط التحقيق إلى الأبد ، وفكروا أيضًا فى قتل الخادم مراد . وبالنسبة لسليمان ، لم تنجح أية خطة فى التخلص منه ، فالحراسة مشددة والسجن لا يُسمح لأحد بدخوله ، ومن ثم لم يكن هناك من وسيلة سوى دس السم فى طعام المسجونين وهذه الطريقة لا تودى بحياة سليمان وحده ، بل بحياة العشرات .. ومع ذلك فإن هذه الوسيلة قد فشلت هى الأخرى مما جعل «بتشوتو» يعانى من هم قاتل لا من أجل نفسه فحسب ، بل من أجل اليهود المتهمين الذين احتجزوا فى الحبس ، وأشار إلى «مدام كاميليا» كى تحاول التخلص من خادمها مراد الفتال فأبدت اعتراضًا وجيهًا :

– «إن الأمور لا تعالج هكذا يا بتشوتو .. سنجر أنفسنا إلى مزيد من المشاكل وسيعرف الجميع معنى ذلك .. إننا بقتلنا سليمان أو مراد

سنفتح ملفًا لقضية جديدة ، ولن يعدم المحققون وسيلة للسيطرة على أحد الضعفاء فيقر بالحقيقة ..»

هز بتشوتو كتفيه فى أسف ثم قال :

- « اليوم قد يعترف سليمان ، وقد تفلت فرصة النجاة إلى الأبد ، تذكرى أن زوجك يعانى من آلام السجن ومعرض لحكم الإعدام .. ويوسف هرارى قد ازدادت حالته سوءًا ..»

هبت واقفة وقالت فى حزم :

- « لا أستطيع أن أقرك على رأيك ..»

- « كيف ؟ ؟ »

- « فى إمكانك أنت أن تفعل ما تشاء ، إنك تبحث دائمًا عن أدوات لتنفذ لك رغباتك ..»

انصرف بتشوتو مكفهر الوجه ، وآبت كاميليا إلى حجرتها وأسرعت إلى زجاجة الخمر ، وأخذت تعب منها ، ويداها ترتجفان ، ثم دارت رأسها ، تركت غرفتها مضت عبر الردهات والممشى الطويل ، فى آخر الدهليز توجد الحجرة القذرة .. الحجرة المعتمة التى تثير مشاعرها ، وتذيب كيانها ، وتغرقها فى بحر من النشوة القاتلة .. هناك تخبئ مراد اللعين ، أحكمت إغلاق الباب من الداخل ، قدمت له طعامًا وشرابًا ، وجلسا يأكلان ، أشرقت عيناها بالفرحة الجنونية :

- « لقد أصبحت لى وحدى ..»

- « أنا عبدك يا سيدتى » .

- « فى نظرى أنت من كبار السادة » .

- « هذا كثير جدًا ..»

- « أيها الأبله .. لا فرق بين غنى وفقير ..»

- «لكنى خادم ..»

وانفجر باكيًا ، فهتفت :

- «ماذا جرى يا مراد .. ؟ ؟»

- « أبكى من أجل سيدى .. ومن أجل نفسى ..»

- « لا تخف ..»

- « الناس يقولون لو لم يأمر الباشا بإعدامنا لأحرقونا أحياء ..»

لفت ذراعيها حول عنقه وأخذت تلامس شفتاها وجهه وعنقه ، لكنه كان باردًا كالثلج ، دفعته فى غيظ وصرخت :

- «ماذا بك ؟ ؟ لن تستطيع الجن أن تعرف طريقك ..»

- « لا أستطيع التخلص من رعبى .. إنه يقهرنى ..»

- « القضية تافهة .. واليهود سيدفعون مئات الألوف ليضيعوا معالمها ، تذكر ذلك جيدًا ، المال هو خاتم سليمان ..»

ثم أخذت ترقص وتهز أردافها وتعب الكؤوس .. وتغنى بصوت ناعم غير متسق :

- « شبيك لبيك .. أنا بين يديك ..»

وظلت تعابثه .. تشد شعر رأسه ثم تنزع شعرة من شاربه ، وتجلسه وتدفعه إلى الأمام وإلى الخلف ... جفت دموعه ، وسرى الدفء فى جسده ، وابتسم . كانت عيناه حمراوين ، يتأرجح دون وعى ، يضحك ويبكى ، وانطرحا على فراش الإثم ، لكنها إزاء اللحظات الحاسمة تسمع صرير الباب .. أهى فى حلم ؟ إنها مجرد أوهام لا شك فى ذلك .. وفوجئت بالخادمة « أستير » تقف أمامها ترميهما بنظرات شرسة .. لم

يكن لدى كاميليا كلمة لتدافع بها عن نفسها وقد وجدت مع خادمها متلبسة بالجريمة ..

- «كيف دخلت إلى هنا ؟ ؟»

- «مفتاح سيدى كان بجيب الصدار ..»

- «اخرجى يا كلبة ...»

ونهضت وهى عارقة فى خجلها وعارها وصفعت الخادمة على وجهها ، لم تتحرك «استير» وإنما ظلت تلهبها بنظراتها القاسية .. بينما طأطأ مراد رأسه فى أسى :

- «لهذا تعترضين على زواجى منه ..»

- «منذ متى تجرؤين على مخاطبتى بهذه اللهجة ... ؟ ؟»

لم تكترث «استير» وأردفت تقول :

- «شككت فى الأمر من قديم .. لكننى أردت أن أتأكد بنفسى» .

- «من تكونين ؟ ؟ حشرة .. اقتلها يا مراد ..»

ضحكت استير :

- «دمى لا يصلح للفطير المقدس ..»

أدركت كاميليا معنى كلماتها ، إنها تهدد ، ولابد من مهادنتها ، لو استطاعت أن تعتذر للخادمة وتسترضيها ، فإن ذلك معناه أن تكتم سر جريمة البادرى توما وفى نفس الوقت تغطى على خطيئتها وبعد ذلك تستطيع أن تتدبر أمرها بهدوء ..

- «استير .. أنا آسفة .. كلنا خطايا .. لحظة ضعف يا حبيبتى .. لقد شربت كثيرًا ولم أتمالك إرادتى .. السكارى يفعلون أى شيء .. أما

سمعت عن ذلك اليهودى الصالح الذى حاول أن يعتدى على عفاف ابنته أثناء سكره ؟ ؟ .. أستحلفك بالله أن تصفحى عنى .. »

ولم تكتف «كاميليا» بذلك بل زحفت على ركبتيها العاريتين، واقتربت من الخادمة واختطفت يدها وقبلتها وأخذت تتمسح فى أذيال ثوبها .. وتقول :

– «مراد لك .. لقد وعد زوجى بذلك، وسيدفع لكما المال الوفير حتى تسعدا، وإذا لم يفعل داود ذلك فأنا سأفعله بنفسى هذا وعد .. ولتغفرى لى ..»

قالت استير فى ارتباك والدموع تغرق عينيها :

– « عفوًا سيدتى ..لقد انتهى الأمر وسأنساه كلية .. وأرجو ألا يترك فى نفسك أى أثر ..»

وهب مراد واقفًا وقال :

– «لن أبقى هنا بعد الآن لحظة ..»

استدارات إليه سيدته قائلة :

– « أنت تغامر بمستقبلك ومستقبل سيدك ..»

– «سأخرج ..»

وقفت كاميليا عاجزة لا تستطيع أن تحسم أمرًا، وخطا مراد صوب الدهليز المعتم متجهًا صوب الباب الصغير المفتوح .. وهمست أستير :

– « إلى أين .. ؟ ؟ »

– « إلى الجحيم .. أكاد أختنق .. ليكن ما يكون ..»

وتبعته استير دون أن تتفوه بكلمة، بينما نظرت كاميليا من حولها، كانت وحيدة إلا من المخطوطات القديمة وبعض نسخ التلمود والكتب المقدسة، وصور متخيلة لبعض الحاخامات الأقدمين، وأشياء مهملة، وبعض الصراصير تجرى هنا وهناك .. نظرت إلى ما حولها بحسرة وشعرت أن الحياة تافهة وأن الأيام تعسة لا معنى لها .. وأن ما يجرى من أحداث غريبة يكاد يورثها الجنون فألقت بوجهها على الأرض وأخذت تنتحب بصوت عال ..



الفصل ١٣

قال سليمان :

– « أجل يا جناب الباشا .. إن المتهمين السبعة الذى تحدثت عنهم أدخلوا « الأب توما » فى منزل داود هرارى .. ثم دعونى بعد الغروب بربع ساعة وقالوا لى : قم فاذبح هذا « القسيس »

كان الأب توما مربوط الذراعين .. فاعتذرت .. أنا لا أقدر على ذبحه . . ووعدونى بالدراهم ، إعتذرت .. ثم سلمونى الإعلان الصغير الخاص بالمزاد .. الذى أعطانى الإعلان هو هارون هرارى .. أتذكر الآن .. لقد قلت لكم إن داود هرارى هو الآخر قابلنى بعد ضبطى ، عندما كنت منقادًا إلى سراى الحكومة .. واستفسر منى عما إذا كنت قد اعترفت بشيء أم لا ، ولما أجبته بما يطمئنه .. أوصانى بالثبات .. ووعدنى بمكافأة كبرى .. ثم إن الذى استدعانى من حانوتى للذهاب إلى بيت هرارى هو خادم داود واسمه مراد الفتال ..»

نظر الباشا الوالى إلى أحد الرجال وقال :

– « استحضروا الخادم مراد الفتال ..»

واستمر التحقيق مع سليمان الحلاق .. « أتقول الحق يا سليمان أم أنك تخاف الضرب وتتهم الأبرياء بالزور ؟ ؟ »

– « الحق ما قلت .. ومستعد لمواجهتهم .. ومصمم على كل كلمة ..»

– « أكان يوجد بالمنزل نساء أثناء الجريمة ؟ ..»

– «لم أرَ غير الرجال السبعة .. والخادم كان فى الخارج ..»–
«من فتح لك الباب .. ؟ ؟ »
– «داود هرارى ..»
– « هل بقيت معهم بعد أن رفضت الذبح .. ؟ ؟ »
– « ذهبت إلى حانوتى ثم إلى منزلى ..»
– « أكان يمكن سماع القسيس إذا صرخ وهو فى الغرفة التى كان فيها ؟ ؟ »
– « المنزل محاط بمنازل اليهود من كل جهة ، والمتهمون كانوا يمنعونه من الصراخ ..»
– « هل كان خادم البادرى معه .. ؟ ؟ »
– « الخادم قتل فى مكان آخر .. والذين قتلوه كانوا متفقين على هذا الأمر مع من قتلوا الأب توما ..»

سيق مراد الفتال إلى التحقيق ، كان مرتبكًا زائغ النظرات ، لقد وجدوه لدى بيت داود هرارى وأقر بأن سيده داود قد أرسله فعلًا لاستدعاء سليمان الحلاق ، وأنكر معرفته بأى شىء آخر ، وزعم أنه لم ير أحدًا من الرجال فى بيت سيده ، ثم وجه داود بكلام خادمه فأنكر وأدعى أنه ذهب إلى الجمرك فى الوقت الذى يدعى فيه سليمان ومراد أنه اتصل بهما ، غير أن شهادة ناظر الجمرك لم تأت فى صالحه ، وبعد يومين أعيد استجواب الحلاق :

– «من أعطاك الإعلان الذى وجد على بابك .. ؟ ؟ »
– « هارون هرارى ..»
– «متى كان ذلك ؟ ؟ »

- «يوم الأربعاء (٤) ذى الحجة بعد المغرب بنصف ساعة وهارون أعطانى برشانًا للصق الإعلان وقد تم لصقه يوم الخميس عند الفجر .. دون أن يرانى أحد .. أنا أعلم أن البادرى كان قد وضع إعلانًا يوم الأربعاء ، وقرأه بعض الناس ثم اختفى ذلك الإعلان .. يبدو أن آل هرارى هم الذين رفعوه بدليل أنهم أعطونى غيره كى ألصقه ..» .

صمم باقى المتهمين على الإنكار ولم يعترفوا بشيء ، كان قد مر على اختفاء البادرى حوالى ثلاثة أسابيع دون الوصول إلى صورة واضحة حقيقية للجريمة ، ورأى الوالى شريف باشا أن سليمان الحلاق لم يزل لديه الكثير ليخبر به ، وخاصة أنه ترددت شائعات تقول أن اليهود سيحاولون قتله ، كما أن اليهود أخذوا يحاولون خفية الاتصال ببعض الشخصيات البارزة سواء من الأجانب أو الوطنيين كى يسدل الستار على التحقيق .. وقال شريف باشا ، بعد أن استدعى سليمان :

- «ممن تخاف .. ؟ ؟»

نظر فى توسل دون أن يجيب .. فقال الباشا :

- «اعلم يا سليمان أننى أعدك بشرفى أن أعفو عنك ، مقابل أن تقول الحقيقة .. حتى تدرأ الفتنة عن الناس ، وتكشف الظالمين ، وتنجى الأبرياء ، لن تخسر شيئًا يا سليمان بل وستكسب الكثير ..»

وأقسم الباشا على وعده وأعطاه كتابًا بذلك ، فقال سليمان الحلاق وهو يبكى :

- «أرسل داود خادمه مراد فى طلبى بعد الغروب .. عندما ذهبت

إلى بيته رأيت هارون وإسحاق ويوسف هرارى ويوسف لينيادو والحاخام أبو العافية والحاخام سلانيكلى وصاحب البيت داود .. كان الأب توما مربوطًا يا إلهى ! ! قالوا قم واذبح هذا القسيس .. أحضر داود سكينًا .. أنا الذى ألقيت القسيس على الأرض .. واشتركنا جميعًا فى مسكه .. أنا الذى وضعت رقبة القسيس على طشت كبير .. وأمسك داود بالسكين وذبحه وأكمل معه أخوه هارون .. لم تقع نقطة واحدة من دم القسيس خارج الطشت .. سكنت حركات الضحية . . ثم سحبناه من حجرة الذبح .. إلى حجرة أخرى فيها بعض الأخشاب ثم نزعنا ثياب القتيل .. وأحرقوها .. عندئذ حضر الخادم مراد الفتال وبأمر منهم قمت أنا والخادم بتقطيع القسيس إربًا إربًا كنا نضع قطعة فى الكيس .. ثم نرميها فى المصرف عند أول حارة اليهود ، بجوار منزل الحاخام موسى أبو العافية ، ثم رجعنا إلى بيت داود .. وانتهت المأمورية . ووعدوا الخادم بأن يزوجوه من الفتاة التى يحبها بمالهم .. ووعدونى بالدراهم ثم توجهت إلى منزلى .. هذا ما حدث .. وأنا لم أقل ما قلت إلا بناء على ما يرتضيه ضميرى ..»

كان الحاضرون وهم يستمعون إلى سليمان فى غاية من الدهشة والعجب ، وعلامات الاشمئزاز والتقزز تبدو على وجوههم ، وبعضهم دمعت عيناه : أيمكن أن يحدث ذلك فعلاً ؟ ؟

قال الباشا لسليمان :

– «ماذا فعلتم بعظامه .. ؟»

– «كسرناها بيد الهاون .. ورأسه .. كسرناها بيد الهاون أيضًا ..»

– « وكيف فعلتم بأحشائه ؟ »

قال : «قطعناها وأخذناها فى الكيس ..»

ثم سأل المحقق :

– «من اشترك فى التقطيع .. ؟ ؟ »

– «كنت أنا والخادم نقطعه ، والرجال السبعة كانوا يرشدوننا إلى الطريقة .. كان معنا سكين واحدة أتبادلها أنا والخادم .. وهى تشبه سكاكين الجزارين ..»

– « على أية بلاطة كسّرتم العظام بعد تقطيع الأب توما ؟ »

– « على بلاطة موجودة بين المربعين » ..

– «لما كسرتم رأس توما بالطبع كان المخ يخرج منه ، فماذا فعلتم به يا سليمان ؟ ؟ »

– «نقلنا المخ مع العظام ..»

وهنا حدث شيء ملفت للنظر فقد صرخ أحد رجال الشرطة الواقفين ، ثم أغمى عليه لهول ما سمع ، وعندما أفاق كان يشهق باكيًا ، فأمر شريف باشا بإخراج الشرطى ، كيما يستكمل التحقيق ، وبدا واضحًا أن علامات التأثر قد ظهرت على وجوه جميع الحاضرين ، بمن فيهم ممثل قنصلية فرنسا والنمسا وانجلترا .. وقال شريف باشا بصوت راجف :

– «متى تمت الجريمة ؟ »

– « وقعت العشاء ..»

– «كم استغرق تصفية الدم ؟ ؟ »

رد سليمان :

- «حوالى ثلث الساعة أو نصفها وهى المدة التى بقى فيها القس موضوعًا على الطشت»

تنهد الباشا فى ألم وقال : «الم يحدث شيء آخر يا سليمان ؟ ..»

- «كان الرجال السبعة يضحكون ويمرحون ويغنون ، بعضهم كان يرقص طربًا .. هذه الطقوس ضرورية كما فى الديانة .. وكانوا يفعلون أشياء كثيرة ليزيدوا من ألم البادرى توما .. وكان الرجل يئن ويتوجع بصوت حبيس لأنهم كمموا فاه .. وقالوا له «كن متألمًا كما كان الناصرى «عيسى» معلقًا على الصليب .. وليتحصل هذا العذاب لجميع أعدائنا»

«هكذا كانوا يرددون»

ثم أجاب سليمان بعد ذلك على أسئلة فرعية كثيرة ، منها نوع الكيس الذى وضعت فيه قطع الجثة ، ومكان نزع ملابس الضحية ، ومن نزعها ، ولون ملابس القسيس إلخ .. ثم أخذ سليمان إلى الحبس الانفرادى واستدعوا الخادم مراد الفتال وواجهوه بأن سليمان قد اعترف بكل شيء ووعدوه هو الآخر بالعفو ، فأدلى باعترافات كاملة تطابقت تمامًا مع اعترافات سليمان الحلاق ..

وتوجه قنصل فرنسا بسؤال إلى الخادم مراد :

- «ما منفعة الدم عند اليهود ؟ ؟»

- «يستعملونه فى الفطير ..»

- «كيف علمت ذلك .. ؟ ؟»

- «سمعتهم يقولون .. »

وقال الأميرالاى حسن بك ، أحد المحققين :

- «حيث أن اعتراف المتهمين لا يوجد فيه اختلاف فلنذهب مع الخواجة (بودين) «مترجم قنصلية فرنسا» والدكتور مسارى، لمعاينة المحل الذى حصل فيه تكسير العظام ثم نعاين المربع (الغرفة) الذى حصل فيه تقطيع القسيس.. والمصرف الذى ألقيت فيه الجثة، ولنأخذ معنا المتهمين ليدلونا على هذه الأماكن كل منهم على حدة، ولنبحث عن مكان تحويل المياه الجارية فى ذلك المصرف عن مجراها الأصلى حتى يمكننا أن نجد البقايا التى رميت فيه ..»

فوافق الجميع على ذلك ...

ودمشق لا يخفى عنها شيء، وللحيطان - كما يقولون - آذان، إذ سرعان ما انتشرت وقائع الجريمة المروعة، وضرب الناس كفًا بكف، وهم بين مصدق ومكذب، قد يشذ رجل أو اثنان أو ثلاثة ويتصرفون كالحيوانات فى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى، أو الجنون، أما أن يجتمع هذا العدد من الرجال المتدينين والمثقفين، ويقوموا بهذه الفعلة الشنعاء، وعلى هذه الصورة المثيرة، فأمر لا يصدقه عقل.. ولكم أثارت هذه الصورة الذعر فى نفوس الأطفال والأمهات بحيث لا تكاد ترى طفلًا إلا وهو فى يد أمه أو أبيه.. واليهود لجأوا إلى ديارهم، وكثيرون منهم هربوا خارج دمشق، ولم يعد للمدينة حديث غير قصة الأب «توما» الذبيح، وخادمه المسكين إبراهيم عمار.. واستطاع بعض الشعراء الشعبيين أن يؤلفوا مواويل يرددها الناس فى كل مكان.



الفصل ١٤

استطاع سليمان ومن بعده مراد الفتال أن يرشدا عن مسرح الجريمة، هنا البلاطة المشؤومة التى كانت العظام تدق عليها بيد الهاون، هنا المكان الذى قطع فيه اللحم إربًا إربًا، هنا ذبحوا البادرى، هنا خلعوا عنه ملابسه، هنا كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون كى تكتمل الشعائر الدينية بصورة شرعية، هنا آثار دم على الحيطان .. وأخيرًا هنا قذفوا بلحم وعظام الضحية، واستطاعوا أن يستخرجوا بعض العظام واللحم، وكذلك قطعة من طربوش البادرى، وأرسلت العينات إلى الباشا حيث تسلمها قنصل فرنسا، وعرضت بقايا الجثة والعظام على لجنتين إحداهما من أطباء الإفرنج، والأخرى من الأطباء العرب المسلمين والمسيحيين، وأما بقايا الطربوش فقد عُرضت على الحلاق الذى كان يحلق عادة للبادرى، أقر الأطباء أن العظام والبقايا بشرية وليست حيوانية، كما أعطى الحلاق مواصفات لطربوش البادرى، وقدم أدلة مقنعة على أن الجزء الموجود من الطربوش هو للبادرى نفسه، لم يخف أمر اكتشاف الجريمة على اليهود المحبوسين فى سرايا الحاكم، كل منهم أخذ يفكر فى معجزة تنقذه. أغلب أفكارهم تدور حول اليهود فى الشام وأوروبا .. إنهم يستطيعون أن يدفعوا الأموال لإنقاذهم أو يبعثوا بكبار الشخصيات العالمية ليتوسطوا لهم .. يجب ألا ينتظروا أكثر من ذلك .. أما الحاخام موسى أبو العافية فقد جلس فى زنزانته حزينًا قلقًا، لم يكن يفكر في إنقاذ

نفسه بهذه الطريقة، بل كان يفكر، هل ينقذ نفسه ؟ أم يبحث عن الحقيقة ؟ ؟ أكان أولًا على صواب أم كان مخدوعًا ؟ ؟ إنه رجل دين بل يطلقون عليه « العاقل » .. هو الذى تسلم الزجاجة التى جمعوا فيها دم الذبيح أخذها بنفسه وأعطاها إلى ربى ديانة اليهود فى الشام كلها الحاخام الأكبر « يعقوب العنتابى » الرأس المدبر للجريمة كلها، أبو العافية أخفى الزجاجة المليئة بالدم تحت ثيابه، ثم سلمها للحاخام العنتابى وهو جالس فى مكتبته الخاصة، قال له العنتابى :

– « سوف نصنع الفطير المقدس، وسنرسل جزءًا منه إلى بغداد، يهود العراق يريدون ذلك، وقد حدثت مكاتبة بهذا المعنى ..»

أبو العافية يذكر تفاصيل ذلك كله ... يذكر اجتماعه مع العنتابى، ولقاءاته المتكررة مع آل هرارى، ورسم الخطة لجر القسيس توما إلى حتفه، الحادث يدور فى ذهن الحاخام أبو العافية، لم كل ذلك ؟ ؟ إنه سؤال وجيه، الأخطر من ذلك كله هل ورد شيء من هذا فى التوراة ؟ ؟ مستحيل أن تطلب التوراة المنزلة من عند الله ذبح المسيحيين لسبب بسيط هو أن المسيحيين لم يكونوا قد وجدوا بعد، إذن هذه العقيدة الفاسدة مختلقة من أساسها، ابتكرها بعض الحاخامات أو الأحبار الحاقدين أو المجانين .. بالتأكيد ! ! وإذا كان أمر كهذا يبتكرونه ابتكارًا فكيف ببقية العقائد والتشريعات التى يمتلئ بها التلمود ؟ ؟ وساءل الحاخام أبو العافية نفسه فى زنزانته :

ألا يوجد تفسير واحد معقول لهذا التقليد الدموى الرهيب ؟ ؟ أخذ يحك لحيته ورأسه .. نحن نختلف مع المسيحيين حقًا، وننكر نبوة المسيح وألوهيته، ونفتخر بأننا رتبنا مسألة صلبه، ونؤمن أيضًا بأن

المسيح الحقيقى الذى نؤمن به ، سيأتى يومًا ما ومعه الفرسان على خيول وجمال لينقذونا ، وليحققوا ملك إسرائيل الكبير من النيل إلى الفرات ، ويعيدوا بناء أورشليم الخراب التى نبكى عليها من قديم .. ألا يمكن أن نكون مخطئين ؟ ؟ ألا يجوز أننا نكره المسيحيين لأسباب تافهة أو لمجرد مجىء المسيح بتشريعات ووصايا تختلف عما كتبه الأحبار والحاخامات ؟ إن الهوى والتعصب إذا دخل عقائد المتدينين ، انزلقوا إلى متاهات خطرة وأتوا بأشياء عجيبة لا تمت إلى الديانة بصلة .. أنا لم أسمع أن المسيحيين يسفكون دم أحد ممن يخالفونهم فى الدين اعتمادًا على عقيدة لديهم ، ولم أسمع عن المسلمين أنهم يغدرون أو يقتلون أصحاب الديانات الأخرى أو يمزجون دمهم بدقيق الفطير ، إننى لا أفكر فى ذلك هربًا من مجابهة الموت أو جبنًا من التصدى للقضية التى أحاكم فيها ، ليت إيمانى بما فعلت كان قويًا ، إذن لقلت ما أعتقد أنه الصواب وليكن ما يكون .

يجب أن أعرف الحقيقة .. أنا الحاخام موسى أبو العافية الذى يبصر الناس بالحقيقة ، ويبشرهم بديانة موسى ، وهو لا يعرف الحقيقة ، ولم تصل إليه ديانة موسى نقية خالية من الشوائب .. يجب أن أعرف الحقيقة أولًا .. وسيان عندى بعد ذلك أن أموت أو تبرأ ساحتى وأعود إلى الحياة ..

ليكن هذا الحادث زلزلة كبرى هزت جسدى ومشاعرى وقلبى ، كى أفيق وأبحث عن طريق الحق .. ثم خطا الحاخام أبو العافية فى حزم صوب باب الزنزانة والليل دامس صامت ، ودق الباب بيد قوية فأتى الحارس :

- «ماذا تريد ؟ ؟»

قال : - «أنا الحاخام موسى أبو العافية .. أريد بعض كتب الإسلام والمسيحية ..»

لم يفهم لحارس ماذا يريد الحاخام بالضبط، وهل هو يمزح أم يقول الحق ؟ أم ترى أصابته لوثة ؟ وما أكثر ما يحدث ذلك بالنسبة للمسجونين الذين لا يطيقون وحدة الحبس وظلامه القاتل، فهتف الحاخام فى ضراعة : «قل لرئيسك ذلك ..»

هز الحارس رأسه ومضى إلى رئيسه الذى اتصل بدوره ببعض الكبار المتصلين بشريف باشا الوالى، وتم للحاخام فى اليوم ما أراد، جلس يقرأ ويقرأ وكان يقارن ما يقرأه فى الديانة المسيحية والإسلام بما قرأه طوال السنين الفائتة فى التلمود «لماذا لم أفعل ذلك منذ زمن طويل ؟ ؟»

ثم طلب أحد العلماء المسلمين ليستفسر منه عن بعض القضايا التى تعذر عليه فهمها فى الشريعة والسيرة النبوية .. فأحضروه إليه، قال الحاخام أبو العافية للشيخ :

- «رفاقى يريدون أن يخرجوا من هذا السجن الصغير أما أنا فأريد الخروج من السجن الكبير ..»

هز الشيخ رأسه قائلًا :

- «ماذا تقصد بالسجن الكبير ؟ ؟»

- «خرافات التلمود التى دبجها الحاقدون، وعشت فى متاهاتها سنين طويلة، دون أن أسمح لنفسى بمعارضتها، أو مجرد مناقشتها .. أيها الشيخ .. كيف أخرج من هذا السجن الكبير ؟»

قال الشيخ ووجهه يشرق نورًا :

- «ليس بينك وبين الحرية سوى كلمة واحدة ..»

قال الحاخام :

- «ما هى .. ؟ ؟»

رد الشيخ :

- «لا إله إلا الله محمد رسول الله ..»

دار الحاخام بنظراته فيما حوله ، نظر إلى السماء الزرقاء .. كان هناك طائر أبيض يشق أجواء الفضاء ، ثم صوت مؤذن ينادى بصوت مؤثر «الله أكبر الله أكبر» يا لها من صدفة عجيبة ! ولأول مرة يشعر الحاخام أن أفراحًا قدسية تعزف فى قلبه وروحه أنشودة شجية وتمتم :

- «أيها الشيخ حدثنى عن الله . . .»

قال الشيخ :

- «ليس كمثله شيء .. عادل بر رحيم .. بارئ الأرض والسماء سميع عليم ..»

وتساءل الحاخام :

- «يقول التلمود إن الله يبكى من أجل أبناء إسرائيل المعذبين ..»

ابتسم الشيخ قائلًا :

- «ما شاء الله أيها الحاخام .. إنه سبحانه وتعالى قوى عزيز .. وكلنا لآدم .. وآدم من تراب ..»

وتمتم الحاخام :

- «ايها الشيخ حدثنى عن الله ..»

رد الشيخ :

– «يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .. ويقول ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ..»

ترقرقت الدموع فى عينى الحاخام وقال :

– «زدنى .. زدنى ..»

رتل الشيخ بصوت رقيق :

– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

– «وعن اليهود ماذا قال .. ؟ ؟»

– «قال الكثير .. ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ... ﴾ إلخ ..»

بكى الحاخام بدموع غزيرة وهو يصيح :

– «وَيْحى .. وَيْحى .. كيف لم أفكر وأنا أخوض بحار الضلال ؟»

وقال الشيخ :

– «تلك مشيئة الله .. فلتنظر من جديد ، والمؤمن يرى بنور الله .. لكلام كثير .. وتستطيع أن تَرِدَ المنهل العذب بنفسك .. فترتوى من الحقيقة العذبة .. ولتعلم أيها الحاخام أن الله يقول : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾

وقف الحاخام وضم الشيخ إلى صدره وقال فى توسل «أين الطريق ؟ ؟»

قال الشيخ «انزع نفسك بقوة من ماضيك العفن ، وتخلص من أوزار الأيام التعسة .. ولتلق الله بقلب جديد .. وفكر جديد ..»

صاح الحاخام « .. الحرية ..»

قال الشيخ : «قلت لك ليس بينك بينها سوى عبارة قصيرة المبنى ... كبيرة المعنى ..»

تطلع الحاخام صوب السماء ونادى بصوت يخالطه البكاء :

– « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . ..»

– « بُشْراك أيها السعيد .. نلت مناك . ..»



الفصل ١٥

انهالت الاعترافات، حاول الحاخام سلانيكلى أن ينكر، لكن كيف ينكر التهمة وقد اعترف الحلاق والخادم وآل هرارى جميعهم ويوسف لينيادو كما وجدت بقية الجثة، ومكان الجريمة وأكدت كل الشواهد والقرائن على ثبوت التهمة، كما حضر التحقيق الوالى نفسه، وقناصل الدول وخاصة فرنسا والنمسا وانجلترا.

ثم أعلن الحاخام موسى أبو العافية إسلامه وتسمى باسم «محمد أفندى أبو العافية» وكان إسلامه ضربة قوية للتجمع اليهودى وللمخطط الصهيونى، الذى يسيرون عليه، إذ أن إسلامه يعنى الاعتراف بالجريمة، والنفور منها، وإظهار الديانة اليهودية بمظهر يسئ إلى الإنسان وكرامته، وإلى تلك العقيدة، وأخذ الناس يناقشون سر فساد اليهود، أهو لطبيعة موروثة فيهم ؟ ؟ أم هو بسبب هذه التعاليم التى اخترعها طائفة من الأحبار اليهودى الذى يريد أن يستغل الناس، ويستولى على مقدراتهم، وينظر إلى غيرهم من الأمم «أبناء نوح» كما يقولون على أنهم دونهم من حيث الفكر والروح ووظيفة الحياة ؟ ؟ أم لهذه الأسباب مجتمعة ؟

هذا الجدل الحامى الذى ساد أنحاء دمشق والشام، انتقل إلى شوارع القاهرة وبعض المجتمعات الأوروبية، الجميع آمنوا بأن هؤلاء المخدوعين عنصر فساد، وأداة بغض، ورمز انحراف وضلال، وإن وجودهم خطر على البلاد التى يعيشون فيها، وجرت

اتصالات كثيرة وعلى أعلى المستويات لإثناء الحاخام أبو العافية عن اعتناقه الإسلام ، وبذلت له الوعود الخلابة أحيانًا ، والتهديدات أحيانًا أخرى لكن الرجل أبى أن ينحاز إلى الضلال ، وقال فى ثقة : «لم يبق لى من العمر إلا قلة وتجربتى الطويلة أثبتت فساد ما كنت مقيمًا عليه من عقائد ، إن الفكر هو سيد الموقف ، وأنا أرى وأسمع وأقرأ وأناقش ، دون التزامات مسبقة أو انتماءات قديمة ، وقد وجدت أن الإسلام هو الدين الحقيقى ، ولا يهمنى وقد وصلت إلى الحقيقة ، أن يُحكم علىّ القضاء بالموت أو يطلق سراحى ، ولا أبالى أسخط اليهود أو رضوا ؟ خسرت الملة اليهودية أم كسبت ؟ إن ما أفكر فيه هو الحقيقة ، وقد نزعت العصابة السوداء من فوق عينى ، وأنطلقت إلى عالم الحقيقة ، حيث الحرية والنقاء والإخاء ... حيث الإيمان الذى لا لبس فيه ولا غموض ولا انحراف ، قال شيخى المؤمن الجليل : « إن الإسلام يَجُبّ ما قبله » . وهأنذا أولد من جديد برغم شيبى وممارستى للطقوس الرهيبة فى الليالى الحالكة السواد .. نظرات البراءة فى عينى القسيس توما تؤرقنى .. دمه النازف يصرخ بى .. كنت أراكم يا معشر اليهود كالذئاب الجائعة وقد انقضّت على الفريسة ، وإذا كان للذئب عذر فى أن الفريسة هى طعامه ، ومن حقه أن يلتهمها ، فماذا كان عذركم ؟ الفطيرة المقدسة ؟ يا للمهزلة ! ! وما يحتويه الفطير من أسرار غريبة وتأثير سحرى ؟ ؟ يا للخرافة ! ! لن يعود الشباب يا داود .. ولن تنتصر أيها الحاخام العنتابى وتسود العالم ، ولن تكسب الملايين يا هارون ، ولن تدخل الجنة يا يوسف لينيادو . أيها الحمقى المخدوعون ..»

وجلس الحاخام أبو العافية - أعنى محمد أفندى أبو العافية - يسطر للوالى شريف باشا هذه الرسالة التى ما زالت مخطوطتها باقية، التاريخ يوم الثلاثاء فى ٧ محرم سنة ١٢٥٦ هجرية، صورة تقرير محمد أفندى أبو العافية المحرر بخطه مرفوع للأعتاب الشريفة :

«حيث صدر الأمر الكريم، نحرر الذى نعلمه فى قضية قتل البادرى توما .

وبما أنى قد صرت من المؤمنين بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، يلزمنا أن نقول الحق .. أن الحاخام العنتابى «ربى» ديانة اليهود فى الشام، تكلم معنا قبل الجريمة بعشرة أو خمسة عشر يومًا .. وقال أنه يلزم له دم، كما أوصت الديانة اليهودية، وقد اتفق مع داود هرارى وإخوته على تنفيذ ذلك فى منزلهم .. إلخ»

واستطرد محمد أفندى أبو العافية فى خطابه الطويل بلغة عامية ركيكة يصف تفاصيل كل ما حدث إلى أن قال فى آخر خطابه :

- «والدم المطلوب عند اليهود لأجل الفطير الذى يصنعونه يوم وقفة عيدهم .. وقد فعل اليهود ذلك أكثر من مرة وقبض عليهم وسيقوا للحكام . . وهذه القضايا مذكورة فى كتاب يتداول بين اليهود اسمه «سفر دهدوروت» حيث يزعم هذا السفر أنها تهمة باطلة .. ولا شك أن القضية المطروحة الآن تظهر الحقيقة جلية» .

الآن عبدكم مستجير بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد ﷺ وقد

هدانا الله إلى دين الحق ، آملين العفو من مراحم دولتكم والأمر لمن له الأمر .. أفندم

توقيع

محمد مسلماني

(الحاخام موسى أبو العافية سابقًا)

وعقد مجلس كبير حضره شريف باشا وقناصل الدول والمحققون وحدثت مواجهة بين محمد أبو العافية وربى ديانة اليهود بالشام الحاخام العنتابى ، المحرض الأول على الجريمة وكانت هذه الجلسة من نوع فريد ، فقد أحضر أبو العافية كتبًا يهودية ، وأسفارًا وشروحًا قديمة وأخذ يستخلص منها العقيدة اليهودية المحرفة ، ويعرضها أمام الحاضرين ، ثم يناقشه فيها العنتابى ، ويوافق عليها ، وقد يزيد فى شرحها . كما تقدم الكثيرون من الحاضرين ببعض استفسارات وأسئلة كثيرة أجاب عليها العنتابى وأبو العافية ، وسجلت كلها فى محضر الجلسة ، ووقع الحاخامات بالعلم والموافقة ، مذكورًا فيها المراجع والصفحة ورقم المقطع بصورة أذهلت الحاضرين من رجال الدول الأجنبية . ومما قاله العنتابى :

- « أن كتب اليهود عادة ما تذكر فى مقدمتها أن الكلام يختص بالدول القديمة منذ آلاف السنين ، وفى ذلك خداع للناس وتعمية الأمر عليهم ، والمقصود منها عدم إثارة المشاكل ، والتمكن من طبع هذه الكتب فى أوروبا ، حتى لا تلفت نظر المسيحيين هناك ، وفى معرض الحديث عن بعض الأماكن البيضاء فى كتب اليهود والتى لا تكتب فيها كلمة أو عبارة ، شرح الحاخامات أن المقصود من وراء ذلك ، حذف

اسم المسيح والمسيحيين، وهذا عرف متفق عليه بين علماء اليهود، فهم يستطيعون قراءة هذه الفراغات لكن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى لا يعرفون ..»

وكانت هذه الاعترافات عن العقائد المحرفة الغريبة فى الديانة اليهودية، أخطر بكثير من الاعترافات الخاصة بمقتل الأب توما وخادمه، وهذا ما أزعج الجالية اليهودية فى الشام، بل فى أوروبا إذ تحركت جمعية الاتحاد الإسرائيلى فى أوروبا بسرعة مذهلة، لوقف التمادى فى هذه الكارثة، ولم يكن أول طلباتهم إلا التوقف عن البحث فى ديانة اليهود ومعتقداتهم، وحذف ذلك كله من محضر الجلسات، وكذلك فعل اليهود المقيمين فى الشام وبغداد وغيرهما من الدول العربية وممتلكات الدولة التركية على السواء ..

هكذا اكتملت عناصر الجريمة فكرًا وتنفيذًا، وتعرى اليهود من فكرهم ودهائهم، ولم يعد هناك على الإطلاق محل للرد العلنى أو الإفلات بطريقة قانونية من المأزق الخطر الذى سببته قضية مقتل البادرى توما وخادمه إبراهيم عمار ...

وفرك «سانتى الصيدلى» صديق الأب توما يديه فى غير قليل من الرضا وقال :

– «دم البادرى لم يذهب هباءً وقد حانت ساعة القصاص .. وهذا يشفى نفوس المحزونين» .



الفصل ١٦

ارتدت ملابسها السوداء ، ووضعت خمارًا شفافًا على وجهها الفاتن ، وأخذت معها بعض الخدم ، وانطلقت إلى سراى الحاكم تريد أن ترى زوجها فى زيارة خاطفة ، ولم تمتنع السلطات المختصة عن إعطائها ترخيصًا بذلك ، وحينما جاء إليها زوجها ، كان كالهيكل العظمى ، تكسوه جلود شاحبة ، وكانت عيناه غائرتان تفيضان تعاسة وألمًا ، هتفت فى حزن

– « داود » .

– « كاميليا .. لشد ما تشوقت إليك !! »

– أراك مريضًا ..»

– « لقد تضعضعت تمامًا يا حبيبتى ... لم أعد أحتمل ..»

نزلت دموعها فى صمت ، نسيت كل شيء فى ماضيها المضطرب ، كان داود تمثالًا مجسمًا من البؤس والشقاء وتمتم : « إنى لا أرى معنى لحياتى المحطمة ، ليتنى أموت ..»

– « لا تقل هذا الكلام . . .»

– « أنا رجل تقدمت بى العمر ، ومن الحمق أن أكذب وأدعى الشجاعة ..»

– « لكل شيء نهاية يا زوجى » .

– « لشد ما أخاف هذه النهاية يا كاميليا » .

وهز رأسه فى أسف ولمس يدها فى امتنان ، ثم قال :

– « ما معنى أن يقضى الإنسان سنواته الأخيرة هكذا ؟ ؟ إن رجلًا

مثلى لم يخلق لعناء كهذا ، إننى أبحث عن العزاء فلا أجده .. كل شيء حولى يجلله السواد .. المستقبل كالح الوجه ، ذهبت نضرة الحياة وحلاوتها .. آه .. كلما فكرت فيما حدث أعجب من نفسى أشد العجب ، لم يكن لكل ما جرى مبرر حقيقى .. ليست المسألة دمًا وفطيرًا مقدسًا .. هنا فى قلب الإنسان تكون التقوى أو يكون العناء ..» أمسكت بيده فى شدة وضغطت عليها فى ثقة :

– «كن متماسكًا ، لا يصح أن يتزعزع إيمانك ..»

ابتسم فى مرارة : «ما زلت وسأظل اليهودى الصالح ، لن أتخلى عن ديانتى ، أنا قوى الإيمان لكنى واهن الجسم .. حزين الفؤاد ..»

ثم التفت إليها « هل أحضرت شيئًا من شراب ؟ »

– « وطعام ... أيضًا ..»

– « لا أريد طعامًا ، صبى كأس من نبيذ ، وهات التبغ ..» تنهد فى حسرة وهو يتناول منها الأشياء ، ثم قال «كيف أولادنا ؟ إنهم لا يفارقون خيالى لحظة ..»

– « أرسلتهم بعد الحادث إلى أقاربهم فى بيروت .. ولم يعودوا حتى الآن .. هم بخير ..»

سعل ، ثم نظر إليها فى تقدير «ليس لدى شيء أخاف عليه سواكم .. وليس لى فى الصبر باع ..»

قالت فى تلعثم « أليس هناك من وسيلة للخلاص ؟ »

– « الأمل فى قلبى لا يموت ... ؟ ؟ »

– «لمَ لا تفعل شيئًا حاسمًا لتنجى نفسك .. ؟ ؟ »

كان ذكيًا لا يفوته التلميح ، وابتسم فى مضض وقال : « أفهم ما

تريدين قوله ، وتريدين أن أفعل ما فعله الحاخام أبو العافية » .

قالت كاميليا فى حرج : « نحن لا نفكر إلا فى نجاتك »

– « مستحيل أن أفعلها » ومال عليها هامسًا :

– « أوروبا تحركت .. ولن يتركونا نضيع سدى ..»

– «لم أعد أثق فى أحد يا داود ، ما المانع فى أن تعتنق الإسلام ظاهريًا ، وتفعل فعل اليهود ؟ ؟ أما تذكر يهود « الدونما » فى تركيا ألا تذكر آباء لنا أقدمين فى أيام مجد الإسلام ؟ ؟ كلهم فعلوا ذلك ، وبقوا يهود مخلصين .. لم أعد أفكر فى أحد سواك ..»

تمتم فى حسرة : « إنى أتعذب عذابًا مهولًا .. لا أنام الليل تلهبنى الأفكار القاسية ، لكنى لن أحيد شعرة واحدة عن ديانتى .. هناك شيء اسمه الأمل فى أن يعود المجد القديم .. لا تنظرى إلى حالنا السيئ هنا .. هناك فى الخارج يهود حقيقيون يُسيِّرون دفة العالم ، ويمسكون بأزمة المال ، ويحركون السياسة .. إنها لصفقة خاسرة إذا غامرت بترك يهوديتى ..»

وكاميليا من عادتها أن تقف عاجزة أمام منطق زوجها مراد وصلابته ، لا تستطيع فى يوم من الأيام أن تفند دعاويه ، أو تخطئ رأيه ، التفكير الحاد يرهقها ، تكره الصراع والمقاومة فى مجال الرأى ، وتكتفى بأى شيء ، وتؤمن سريعًا بقول محدثها متى رأت فيه الإصرار ، ووجدت لديه المنطق والحجة ، أية حجة .. همست فى حيرة : « لماذا نعيش ؟ ؟ »

– « أجيبى أنت يا كاميليا » .

– «لننعم بالحياة ..»

ضحك ضحكة مرة وتمتم :

– « أنا لم أنعم بالحياة قط» الذهب فى يدى وأريد المزيد .. الطعام كثير .. وأحلم بشيء آخر ، لدىّ البنات مع البنين لكنى أشعر بالحاجة والفقر .. أنفق أحيانًا عن بذخ .. ولا أستسيغ لذة فى ذلك .. ما معنى ذلك يا كاميليا ؟ ؟ نعيم الحياة ليس هو مصدر السعادة ، وظنى أن ممارسة الحياة هى السعادة . أن أحيا وأفكر وأمرض ، وأشفى ، وأشبع وأجوع .. وأتعب وأستريح .. تلك هى السعادة .. هذا ظنى ..»

لم تفهم كاميليا شيئًا ، التصقت به ضمته إليها فى حنان بالغ ، شعرت بنتوءات عظامه تغوص فى لحمها الطرى ، تأوه فى عمق ، أحزنتها حالته التعسة ، وتدهوره البشع ، أى عذاب بعد ذلك ؟ تمتم فى انفعال :

– « إذا أنا مت فلا تحزنى كثيرًا .. أعرف أن النصح فى مثل هذه الأمور لا يفيد ، لكنى أقولها لك صادقًا .. عودى إلى الحياة وانتصرى على سخافاتها .. كونى أنت الأم والأب للأسرة ..»

عادت الدموع إلى عينيها :

– « لا تفكر فى أمر كهذا يا داود ..»

رد فى حسرة :

– « يا إلهى .. إنى أتخبط .. يبدو أننى لا أحسن الكلام فى هذه الأوقات ..» جفف لها دموعها وربت على كتفها وقال :

– « القتل فى كل وقت .. وكل مكان ، لست أدرى لماذا هذه الضجة كلها من أجل البادرى ؟ بالأمس أهلكت الحرب الكثيرين ، مات رجال ..

وأطفال .. وقساوسة .. وشيوخ ويهود .. هل القتل الجماعى مباح وحده .. ؟ ؟»

نظرت إلى زوجها فى دهشة ، إن كلماته عجيبة ، يبدو أن تفكيره قد اختل ، أو يود أن يرتكب الناس جرائم القتل بدون حساب أو عقاب ..»

قالت مستغربة : «هل لو قتل أحد من عائلة هرارى .. أكنتم تسكتون .. ؟ ؟»

ضحك داود فى بلاهة وقال : «بالطبع لن نسكت فرجل من أبناء هرارى يختلف عن أى رجل آخر ..»

– «لكننا أمام القانون سواء ..»

– «إنه قانون ظالم ..»

– «كيف ؟ ؟»

– «لقد خلقنا الله أسيادًا وحكامًا للعالم ، والله فى سمائه يبكى من أجلنا ويذرف الدموع حتى ..»

قالت فى شيء من القلق : «كف عن هذا الكلام الآن يا داود ..»

نظر إليها قائلًا :

– «يوسف هرارى يحتضر .. ويوسف لينيادو مات بالأمس من شدة المرض .. مات البادرى فليذهب إلى الجحيم .. وأسلم أبو العافية ، العار كل العار له .. وأفشى سرنا مراد وسليمان عليهما اللعنة الأبدية .. سننتظر المسيح الحقيقى القادم هو وفرسانه راكبين الإبل والجياد وبكاؤنا على أورشليم الخراب سيظل مستمرًا حتى ..»

وقالت مقاطعة : «ويحك ! العسكر ينظرون إليك ..»

وجاءهما صوت الحارس «انتهت الزيارة . . .»

نظرت إليه فى حسرة، وجرت حطامها، وعادت إلى الطريق، دمشق تعج بالحياة، والناس البسطاء يمرحون ويأكلون ويشربون، والأغنيات الشعبية - برغم مسحة الحزن - تعمر الطريق، ضحكات تشق عنان السماء .. ورجل نصف عار يتغنى بمدح الرسول ﷺ، وصبايا فى الشرفات يرددن أهازيج الحجيج .. ومأذنة عالية تسمو صوب السحاب وعليها رجل يؤذن للصلاة .. وكنيسة أجراسها تدق، ومزاد علنى يرتفع فيه صوت الدلال، والعالم يسير، وأطفال صغار يجلسون فى شمس الشتاء الساطعة يقرؤون فى المصاحف .. الكتب المقدسة فى أيدى الأطفال، يا إلهى .. لا أسرار ولا غموض .. الدين للجميع .. ليس هناك أسرار مخبأة فى دهاليز مظلمة، وليست هناك طقوس خاصة بالأحبار الكبار أو الحاخامات العظام .. المصحف يقرؤه الصغير والكبير، أكان أبو العافية على حق حينما اعتنق الإسلام ؟ ؟ هذا ما كانت تفكر فيه كاميليا وهى تدلف إلى حارة اليهود ..

كان أحد اليهود يقترب منها وهى تمشى فى الحارة ويقول: «كيف حاله ؟»

همت أن تقول أنه فى أسوأ حال، وإنه نصف مجنون، لكنها ضحكت ساخرة، وقالت شيئًا آخر، قالت فى اعتزاز:

- «داود كالجبل الأشم .. إيمانه أقوى من إيمان الحاخامات العظام» ولجأت إلى حجرتها فور وصولها، وهربت من الحقيقة

المرة إلى النوم العميق ، ولم تفق إلا فى اليوم التالى ، حينما جاءت إليها الخادمة استير وقالت :

– « سيدتى .. إنى راحلة .. « نظرت كاميليا إلى استير ، كانت تحمل فى يدها صرة ملابس وترتدى ثيابها الكاملة ، وتمتمت : « إلى أين يا استير ؟ ؟ ..»

– « سأذهب إليه .. إنه ينتظرنى .. وسأرحل معه إلى مكان آخر ، لم يعد لنا عيش فى هذا المكان » .

كانت آثار النوم عالقة بأهداب كاميليا ، ومع ذلك فقد فهمت بعض ما تقصده الخادمة ، وتساءلت :

– « من الذى ينتظرك ؟ ؟ »

– « مراد ..»

– « كيف .. ؟ ؟ إنه فى السجن ..»

– «لقد صدر العفو عنه هو وسليمان الحلاق .. وغادرا السجن ..»

قالت كاميليا وقد وثبت من سريرها : « وداود .. ما مصيره ؟ ؟ »

قالت استير متلعثمة : « وتم العفو عن أبو العافية ..»

– « وداود ؟ ؟ »

طأطأت استير رأسها .. ولم تنطق .

– « تكلمى يا استير ..»

– « لا أعرف .. غير أنهم قالوا أن يوسف هرارى مات بالسكتة القلبية ..»

ووقفت كاميليا شاحبة ، وقالت :

– « هل مات داود هو الآخر .. ؟ ؟ »

– « لا إنه حى .. بكل تأكيد ..»

– «لم لا تقولين ذلك منذ البداية ؟ ؟ »

وسادت فترة صمت قالت استير بعدها :

– « أنا لا أتخلى عنك يا سيدتى ، لكن الرحيل أمر ضرورى .. هكذا يريد مراد الفتال ...،الخير فى أن نرحل ..»



الفصل ١٧

عاد محمد أفندى أبو العافية (الحاخام أبو العافية سابقًا) إلى بيته، كان يمشى فى حارة اليهود مرفوع الرأس وكانت النظرات المسددة إليه كأنها سياط حارقة تلهب جسده، ومعانى الحقد تنصب عليه من كل جانب، ولم يجرؤ أحد من اليهود أن يرفع صوته بكلمة.. لكن الأمر كان مختلفًا تمامًا عندما بلغ بيته.. اجتمعت الأسرة من حوله، وكانوا فرحين بنجاته قلقين مضطربين من أجل ما حدث، وكان هو يدرك صعوبة الموقف.. وتبادلوا العناق والقبلات، وقال ابنه بعد فترة وجيزة..

– «يا أبى كيف تركت الديانة.. ؟ ؟ ؟»

قال أبو العافية فى ثقة: «لقد اخترت طريقى.. وأنا لم أترك الديانة لأسقط فى فراغ، ولكنى تدينت الديانة الحقيقية حسبما أعتقد الآن..»

رد الابن: «لندع الحق والباطل الآن.. المهم سمعتنا وشرفنا بين اليهود..»

ابتسم محمد أفندى أبو العافية وقال: «أمام الله فى الآخرة.. سوف نقف فرادى، لن يحمل أحد عن أحد عقابه، ولن يشفع حاخام لرجل أو امرأة من أتباعه ..بل سيتحمل أوزارًا على أوزاره، دون أن ينقص ذلك من أوزار تابعه.. فلتمت كل السخافات القديمة التى أفنيت فيها عمرى.. أيها الأبناء من اليسير أن يضحى المرء بنفسه ويتقبل الموت بشجاعة، وقد كنت على وشك أن أفعل ذلك، لكن يجب أن

تدركوا أن الشجاعة الحقيقية هى أن تنزع نفسك من عفن الماضى الذى درجت عليه ، الشجاعة أن تختار ، والجديد دائمًا يبعث على الشك والخوف .. لكى تكون مسلمًا لابد أن تكون حرًا شجاعًا ، عندئذ تصل إلى الجنة الحقيقية ..»

ثم أخذ يخاطب أفراد بيته واحدًا واحدًا ، حتى الأطفال كان يجادلهم ، لم يجب أحد ، وقفوا صامتين حائرين ، عندئذ قال :

– «أنا لا أفكر فى الشكليات والمظاهر التافهة .. لا يهمنى ما يقوله اليهود أو غير اليهود .. القضية قضية حق .. أو باطل .. خطأ أو صواب .. وأنا اخترت ما أعتقد أنه حق وصواب وليكن ما يكون .. ذلك جوهر الأمر كله ..»

ثم نظر إليهم مرة أخيرة ، وقال عبارة جامعة فاصلة :

– «يا أهل بيتى .. لسوف أغادر حارة اليهود إلى الأبد .. سأغادر حارة اليهود .. أتفهمون ؟ ومن أراد منكم أن يتبعنى .. فليتبعنى .. وسأعيش هناك ، إلى جوار المسجد الأموى العريق .. وعندما يؤذن المؤذن للصلاة ، فسأكون إلى جوار المنبر فى الصف الأول . . .»

وتركهم وانصرف ..



الفصل ١٨

وعاد سليمان الحلاق هو الآخر إلى بيته، واستقبله أهله بحرارة بالغة، لم يعتب عليه أبوه، ولم تلمه زوجه، بل فتحت ذراعيها لاستقباله، اليهود فى الحارة يدركون أنه فتح الباب للفضيحة، وشهد ضد إخوانه، ولم يستطيع أحد أن يسد الثغرة التى فتحها بيديه: ولم يكترث لذلك كثيرًا، فهو وحده يعلم الظروف القاسية التى رزح تحت أعبائها، وليس حريصًا على أن يلتمس المعاذير لنفسه أو يشرح وجهة نظره لليهود، ولا يفكر مطلقًا فى أن يدافع عن انهياره، سيان عنده أن يقول الناس لقد ضعف سليمان وخان الأمانة، أو يقولوا كان الله فى عونه، لقد تحمل أقصى ما يستطيع، ولطاقة الاحتمال لدى الإنسان حدود.. فليقولوا ما شاءوا، لقد أراد أن يتخلص من هذه الورطة، وخرج إلى الوجود من جديد، الحياة عند سليمان أثمن وأعظم من المبادئ.. أروع شيء أن يعيش الإنسان، أما الموت والسجن فكلاهما أمر رهيب، من الصعب أن يطيقه بشر..

قالت له زوجه: «فيم تفكر يا سليمان ؟ ؟»

قال بوضوح لا كذب فيه ولا زيف: «أفكر فى نفسى وبيتى ..»

قالت ببساطة: هذا عين العقل ..»

أردف سليمان شاردًا:

– «وتعلمت شيئًا لا أنساه مطلقًا ..»

– «ماذا .. ؟ ؟»

– « الأمن هو أعظم ما فى الحياة ..»

– « أجل ..»

– « ولا يهم بعد ذلك يا زوجتى أن يكون الإنسان غنيًا أو فقيرًا ، الأمن كنز ثمين وسعادة كبرى ..»

قالت « أو تعتقد أن اليهود سيتركونك فى حالك .. ؟ ؟ »

قال فى ثقة «لن يجروًا على أن يفعلوا شيئًا ، لقد اعترفنا جميعًا .. ولا يجهل أحد الظروف التى أرغمتنا على إظهار الحقيقة ..»

قالت وهى ترمقه فى تساؤل : «ظنوا أنك على وشك أن تعتنق الإسلام كما فعل أبو العافية » .

رد بهدوء : «لم أفكر فى ذلك بعد أو وعدونى بالعفو ، كنت أريد العفو بأى ثمن وقد حصلت عليه ..»

قالت : « معنى ذلك أنك ..» قاطعها قائلًا :

– « أجل لو لم يكن هناك من وسيلة لأنقذ نفسى سوى الإسلام لفعلت ، لكن الظروف لم تلجئنى إلى ذلك لحسن الحظ .. قلت لك إن حياتى وأهل بيتى أهم لدى من كل مبادئ الدنيا ..» اقتربت منه ثم التصقت به وهمست فى أذنه « إنى لجدُ سعيدة بأنك لا تفكر إلا فى نفسك وأهل بيتك .. نظر إليها فى شوق ولهفة ثم توجه إلى أبنائه وقبلهم فى حارة وقال :

– « اذهبوا إلى جدكم فى الحجرة الثانية ..»

وأردفت زوجه « هيا يا أحبابى .. أبوكم متعب ويريد أن ينام ..» عندما انصرف الأبناء قال سليمان فى توتر : « ها قد عادت الأيام يا زوجتى .. وكان يجب أن تعود .. وبأى ثمن ..»

ثم ضمها إلى صدره فى شوق جائع ...

وفى اليوم التالى ذهب إلى حانوته، فى الطريق لاحقته العيون والتعليقات الهامسة، بعضهم اقترب منه وصافحه، وآخرون بصقوا على الأرض بالقرب منه، تناثرت من حوله كلمات بذيئة، تجاهل السخافات والتعليقات الخارجة، ثم فتح ينتظر، وبقى فترة طويلة، دون أن يأتى إليه زبون ليحلق شعره، ليكن فالأمر يحتاج إلى وقت، وكثير من الناس لم يعلموا بنبأ خروجه، وكثير من اليهود سيقاطعونه بالتأكيد، هذه المقاطعة لن يعبأ بها، والزمن كفيل بمحو الكثير من سوء الظن .. وليس عليه سوى الصبر ..

وقبيل الظهر فوجئ سليمان بأعداد كبيرة من الناس تهل عليه .. ابتسم خفية .. ثم بدأ يمارس عمله وسط الصمت المتوتر ..

وبعد فترة لا يدرى سليمان أطالت أم قصرت، وكان يحلق شعر طفل صغير، قال الطفل :

– «حاذر .. إياك أن تذبحنى كما ذبحت البادرى . إننى أخاف منك خوفًا شديدًا ..»

وضج جميع الحاضرين بالضحك « أنا لم أذبحه يا بنى ..»

وكان هذا الحديث العابر بداية لنقاش طويل، انهالت الأسئلة والاستفسارات على سليمان الحلاق، كان حذرًا، حاول أن يهرب من الإجابة، لم يشف شغفهم للحديث وكان يقول :

– « أنا حلاق مسكين لا دخل لى بشيء ..»

– «كيف مات يوسف لينيادو يا سليمان ؟ ؟»

هنا استطاع أن يجيب : «كان مريضًا فمات .. لا دخل لأحد فى

موته .. لا تصدقوا ما يشاع، إننى أقول الحقيقة .. لم يتعرض لأى أذى ..»

قال زبون يجلس قرب الباب :

- «وهناك شائعة تقول أن يوسف هرارى هو الآخر مات ..»

رد سليمان : «تركته مريضًا يصعد أنفاسه فى صعوبة .. إن الشيخوخة والمرض لا يمكن أن يدعاه يعمر طويلًا .. أنتم تعلمون أنه مريض منذ زمن بعيد .. وأنا لا أكذّب شائعة موته لقد تركته يحتضر ..»

واقترب أحد الزبائن من سليمان وهمس : «أنت نذل ..»

نظر إليه سليمان فى رقة، لم يثر أو يحتد، وإنما قال :

- «سامحك الله ..»

- «كان الأوفق أن تجلس فى البيوت مع النساء ..»

- «أنا لا أنقم عليك ولكنى أرثى لحالك ...لن تفهم لغتى لسبب بسيط، هو أنك لم تخض التجربة، ثم التفت سليمان إلى الحاضرين وقال :

- «من عليه الدور فى الحلاقة يتقدم ..»

وواصل سليمان عمله دون اكتراث، لكنه لاحظ أن كثيرًا من الأولاد والنسوة والفتيات والفتيان كانوا يمرون فى الشارع أمام حانوته، ويسترقون النظر إليه، وكان سليمان يرى من خلف البراقع فضولًا كبيرًا، وحاول ألا يهتم بذلك. وفى المساء دُق باب بيت سليمان، وقال لزوجته فى إصرار :

- «لا تفتحى الباب لأحد ..»

- «ليس لى أصدقاء ، ليذهبوا إلى الجحيم ..»
- «لعله مريض يريد علاجًا منك ..»
- «لن أمارس مهنة الطب بعد اليوم ، تكفينى الحلاقة ، ولن أذهب لبيت أحد ، ولن أغادر بيتى فى المساء لأى سبب كان ..»

لكن الدق مستمر على الباب ، قالت زوجه :

- «لسوف أذهب لأرى من الطارق ..»

عندما ذهبت إلى الباب هتفت بصوت خفيض : «من ؟ ؟» وجاءها صوت فى الخارج : «افتحى .. أنا مراد الفتال ..»

«افتحى .. إننى أعرف أنه هنا .. أريده لأمر هام ..»

ترددت برهة ، لكن سليمان أشار إليه بأن تفتح ، ودخل مراد ومعه استير ، قال مراد :

- «حكموا على الباقين بالإعدام ..»

قال سليمان ببرود : «هذا لا يهمنى فى كثير أو قليل ..»

- «وأنا سأغادر دمشق .. أنا واستير ..»

قال سليمان هذه المرة دون اكتراث : «رافقتك السلامة ..»

- «وأريد منك قرضًا بسيطًا ..»

ضحك سليمان فى سخرية : «خاوى الوفاض يا حبيبى ..»

- «قلت لى فى السجن أن لديك بعض المال المدخر ..»

هتف فى جفاف ..

- «لا أريد أن أراك ثانية لقد انتهى كل ما بيننا ..»

تساقط العرق على جبين استير ، وارتبك مراد ، ثم وقفا ، متجهين صوب الباب ، وبعد أن أغلق سليمان الباب ضحك فى شماتة وقال :

- «لم أعد أكترث لشيء ، ولم أعد أعترف بشيء اسمه الصداقة أو الأخوة .. إننى لا أرى حولى إلا وحوشًا فى غابة هكذا الناس .. إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب .. هلمى إلىّ يا زوجتى الحبيبة .. لقد أحرقنى الخوف والحرمان وأريد أن أعيش .. أعيش لنفسى . . وليخر الكون كله وليذهب جميع حاخامات العالم إلى الجحيم .. ولتخرب أورشليم ألف مرة .. سيان عندى إذا عاد المسيح الحقيقى أو لم يعد ..»



الفصل ١٩

ألقى القبض على أغلب المتهمين فى قضية مقتل الخادم إبراهيم عمار، وتم فيها التحقيق على وجه دقيق، وصدر الحكم بإعدام المتهمين الذين ثبتت إدانتهم مثلما حدث فى قضية مقتل الأب توما، وارتاح جمهور الناس لهذه الأحكام الرادعة العادلة ..

وفى الرابع من صفر عام ١٢٥٦هـ الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٨٤٠ أرسل جناب قنصل فرنسا إلى الوالى شريف باشا خطابًا هذا نصه: «أخبرت دولتكم بإفادتى نمرة ٢٢ بأنه جارى دسائس خفية بخصوص اليهود المحبوسين، وقد علمت أن اثنين يهوديين أحدهما يدعى (الياهو نحماد) من حلب والآخر «بتشوتو» الذى ورد اسمه فى التحقيقات من قبل، وعدا أحد الرجال المشتركين فى التحقيق بأن يعطياه مبلغًا كبيرًا من المال، لكى يقول أقوالاً مخالفة لما جاء فى أقوال المتهمين حتى الآن، وقد وعدوه ببعض آلاف الريالات، وحماية قنصلية، واقتضى تحريره ..»

الكونت دى راتى مانتون – قونسلوس دولة فرانسا بالشام وردت مكاتبة أخرى من جناب القنصل إلى الباشا تحت رقم ٢٢ مكرر يقول فيها:

«دولتلو أفندم ..

من الواجب أن أضيف على كل ما ذكرته بتحريرى السابق نمرة ٢٢ المتعلق بمداخلات اليهود ودسائسهم، أن أحدهم طلب من أحد المنتمين لدولة أخرى غير الدولة الفرنساوية أن يجتمعا مع «شبلى

أفندى» (موظف فى القنصلية الفرنسية) ليتداولوا فيه قضية مهمة، فصرحت بهذا الاجتماع حبًا فى الوصول لمعرفة السبب، فقدم اليهودى هذه الطلبات الأربعة :

أولًا : التوقف عن ترجمة الكتب العبرية لأن ذلك مخل بحقوق الأمة اليهودية ..»

ثانيًا : ألا يصير وضع هذه الترجمة أو شيء آخر يختص باليهود فى دوسيه القضية بل يلزم إعداد أو إتلاف كل ما ترجمه موسى أبو العافية (محمد أفندى أبو العافية).

ثالثًا : أن يصير التوسط لدىّ لكى أستحصل من دولتكم على الإفراج عن أحد المتهمين (المعلم روفائيل فارحى) وهو متهم فى قضية مقتل الخادم ..

رابعًا : أن تجرى الوسائط لإبدال جزاء الإعدام المحكوم به على المتهمين بأى عقوبة أخرى .. وبعد انتهاء ما تقدم ذكره يصير دفع خمسمائة ألف قرش (خمسة آلاف دينار عثمانى ذهبًا) منها مائة وخمسون ألف وقت التصريح بالرضا، والباقى عند نهاية القضية، وأن موظفنا شبلى مفوض فى توزيع هذا المبلغ حسبما يراه موافقًا ...

. . . .

ولدى كيس به بضعة آلاف من القروش أحضره أحد اليهود، وقد حفظته بصفة أمانة لحين إجراء التحقيق .. .... إلخ»

إمضاء

الكونت دى راتى مانتون – قونسلوس فرانسا بالشام



الفصل ٢٠

وبناء على هذه الإفادات بدأ تحقيق آخر في قضية الرشوة التي أخطر عنها القنصل الفرنسي وكانت الأدلة واضحة جلية .

كانت كاميليا على علم تام بما يجرى من محاولات لإنقاذ المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام ، وكانت على اتصال بكبار اليهود الذين تزعموا هذه العملية ، وخاصة بتشوتو ، اليهودى الذى اتهم فى قضية الخادم إبراهيم عمار ، وشهد عليه الشهود ، والذى ظل يتمتع بقسط كبير من الحرية لأنه تحت حماية دولة النمسا .. ولم يفارق «كاميليا» قلقها طوال هذه المدة .. لأنها تخاف المفاجآت ، ما يحدث لو فوجئت ذات يوم بجثة زوجها تسلم إليها كما حدث ليوسف هرارى ، ويوسف لينيادو ؟ ؟ كانت تغمض عينيها عندما ترد هذه الخواطر على ذهنها ، وتحاول جاهدة أن تبعدها عنها . إنها بالتأكيد اليوم لا تريد لزوجها أن ينتهى تلك النهاية المحزنة ، هل هى تحبه ؟ ؟ سؤال صعب الإجابة ، أهى تكرهه ؟ ؟ مثل هذه الأسئلة لم تكن تستطيع فى الحقيقة أن تجيب عليها بكلمة واحدة حاسمة ، لا تستطيع أن تقول «لا» أو تقول «نعم» خالصة من الظلال أو الغموض .. بالأمس كانت تخونه ، وكانت تدرك أن هذه الخيانة لها معنى شيء يرفضه المجتمع ، ويزعج زوجها لو علم بها ، كانت مؤمنة أنها تفعل فعلاً خاطئًا لكنها – مع ذلك – كانت تفعله ، وكانت تفترض أن زوجها رافض له ، بل قد يسفك دمها لو علم بها ، وتتصور زوجها غاضب الوجه ، مشمئز النظرات ،

يريد أن ينشب فيها أظافره وأنيابه كذئب شرس، هذه الصورة المتخيلة لزوجها كانت تثير الكراهية له فى نفسها ، أما زوجها الذى تعايشه وتخاطبه ، ويرق لها ويبتسم عند رؤيتها ، ويحاول مراضاتها بشتى الطرق ، فهو نموذج آخر غير النموذج المتخيل الرهيب ، لم تكن تحمل لتلك الشخصية الباسمة الرقيقة كراهيةً ولا حقدًا ، وكانت تكره واحدة منها وتحترم الأخرى ، وكانت تهرب من هذا التمزق النفسى العنيف إلى الخمر وإلى أحضان لا يؤدى معها وظيفة الرجل ، وكانت فلسفتها الغريبة تزعم لها أن لها الحق فى أن تسد الفراغ القاتل فى حياتها ، أو النقص القائم فى زوجها بأية طريقة ، ولو مع خادم .. وما أن جاءت الكارثة ، وأخذ زوجها إلى السجن حتى شعرت بالحرية . ذاب خوفها ولم تعد تخاف رجلها الشرعى .. فانطلقت تعربد حتى أفاقت على الحقيقة المرة ، حينما أمسكت بها الخادمة « استير » وهى فى الوضع الشائن ، بعدها أفاقت إلى نفسها ، أخذت المأساة ، وبعد فترة لا تدرى أطالت أم قصرت وجدت نفسها تقدس ذكرى زوجها وأياديه البيضاء عليها ، وتعودت على الصوم ... وربما عانت فى أيام صومها الأولى لكنها الآن تستطيع أن تصمد .. ومن آن لآخر تراودها خيالات اللذة الآثمة ، لكنها سرعان ما تثوب إلى رشدها ، وتستمر فى صومها ، صوم الجسد عن المحرمات .. هى لا تنكر أن لها مع زوجها مأساة من نوع خفى يجهله الناس ، وتعرفه هى تمام المعرفة ، لكن علاج الأمر لا يكون بالجنوح إلى الرذيلة ، أليس بإمكانها أن تنفصل عنه ، وتبحث لها عن زوج آخر ؟ إن هذا التصرف برغم صعوبته وآثاره المؤلمة قد يكون أليق بها كإنسانة تؤمن بالقيم المتوارثة ،

والأخلاق المتعارف عليها ، وبرغم كل ذلك فهى الآن لا تنظر إلا إلى الرجل الذى يضوى وينتحب خلف القضبان ، تريده أن يحيا أولًا وأن يعود إليها ولتترك ما بقى إلى الله ..

انزعجت «كاميليا» حينما علمت أن الوساطة قد باءت بالفشل ، وأن التحقيق قد بوشر فى القضية الجديدة ، قضية الرشوة التى أبلغ عنها قنصل فرنسا ، وكانت تعلم كما يعلم الناس أن شريف باشا والى دمشق صعب المراس ، وأنه قد يصدر أمره فى أى وقت من الأوقات كى ينفذ عساكره الحكم الصادر ضد اليهود ، ولذا كانت تجرى هنا وهناك وتلتقى ببعض رجالات الدول الأجنبية وتوعز إليهم أنه إذا لم تكن هناك وسيلة لإنقاذهم فسيضطر بيت هرارى كله نساءً ورجالًا إلى اعتناق الإسلام ، حتى يفلت الرجال من حبل المشنقة ، وفى ذلك عار كبير لليهود واليهودية ، ولم يأل اليهود وسعًا فى البحث عن وسيلة ..

وكاد الحكم أن ينفذ لولا أن قنصل فرنسا رأى أن يُرفع الحكم للتصديق عليه من إبراهيم باشا بن محمد على ، وفى هذه الأثناء جدت أمور مثيرة ..



الفصل ٢١

تأزم الموقف وخاصة فى أوروبا ، إذ أقام اليهود الدنيا وأقعدوها ، بتحريض من جماعة الاتحاد الإسرائيلى فى أوروبا ، وكان قناصل الدول يرسلون بتقارير وافية إلى عواصم دولهم ، عن هذه القضية ، ورأى كبار اليهود فى أوروبا أن يحاولوا بشتى الطرق وقف تنفيذ الحكم لفترة يستطيعون خلالها أن يجدوا حلًا .. ولن يستطيعوا تعويق القضية إلا بدفع مبلغ كبير لمحمد على شخصيًا . والاستفادة من بعض الضغوط السياسية العالمية ، وخاصة أن محمد على باشا حاكم مصر والشام فى تلك الفترة ، يقاوم تيارًا جارفًا من العداء التركى وبعض الدول الأوروبية ، وكان اليهود الأوروبيون ينظرون إلى القضية على أنها أمر يمس الديانة ومستقبلها ، ويمس اليهود ككل فى أنحاء العالم الإسلامى والمسيحى ، وليس الأمر مجرد عشرة أفراد حكم عليهم بالإعدام ، فى قضيتى البادرى وخادمه . وأجريت اتصالات سريعة وعلى أعلى المستويات مع والى مصر محمد على باشا وقدم إليه اثنان من كبار اليهود الأوروبيين ممثلين لجمعية الاتحاد الإسرائيلى هما «كراميو» و (•مونتيفيورى» الفرنسيان . استقبلهما محمد على بالترحاب البالغ بعد أن تسلم الثمن .. قال «كراميو» :

– «نحن نلتمس منكم إعادة النظر فى الدعوى ..»

ابتسم محمد على فى دهاء وقال : « أفهم ما ترميان إليه .. تريدان حل الأزمة بطريقة قانونية حتى لا يثور أبناء الشعب ضدى .. تقصدان

محاكمة جديدة .. ثم ينكر المتهمون الاعترافات السابقة .. ثم يصدر الأمر بالبراءة ..»

قال «مونتيفيورى» اليهودى الداهية : « هو ذاك ..» .

هز محمد على رأسه قائلًا :

- «ليس لدى وقت لهذا كله ، ثم إنى لا أخاف أحدًا .. الشعب فى قبضة يدى ، ولا يستطيع أحد أن يعترض على قرار أتخذه .. إن لى رأيى الخاص الذى لا أخاف أن أواجه الناس به ..»

وابتلع جرعة من القهوة التركية وقال :

- «سأفعل معكما أحسن من ذلك ، هو إنى سأخلى سبيل المحبوسين وآمر بإرجاع الهاربين إلى أوطانهم ، وأظن أن ذلك أفضل من إعادة النظر فى القضية لأن إعادة النظر مما يتسبب عنه استمرار الضغائن بين المسيحيين واليهود ، وهذا أمر لا أوده ، وسأخبر القناصل بإراداتى ، وأرسل أوامرى الليلة إلى شريف باشا .. إننى أحب اليهود لأنهم شعب مطيع يحب الشغل ، وإنى سأظهر لكم ما يفيد ميلى إليهم بكل ممنونيتهم ..»(١) .

ثم سلمهما « فرمان » العفو وذكر فيه هذه الألفاظ لشريف باشا :

« اعف عن المسجونين »

خرج المندوبان وفى يديهما صورة من فرمان العفو ، وتوقف «كراميو » لحظة وقال :

- « هذا فرمان خطير يا مونتيفيورى » .

---

(١) هكذا فى الأصل .

- «لقد حققنا نصرًا عظيمًا ، بثمن بخس ..»
- « أنت واهم .. لقد سقطنا سقطة كبرى ..»
- «ماذا تعنى يا كراميو ..»

قال كراميو ويده ترتجف بالفرمان :

- « إن كلمة العفو معناها أنهم أدينوا ، وفى ذلك فضيحة عالمية وخطر كبير على ديننا » .
- « هو صحيح ، لكن ماذا نفعل أكثر من ذلك ؟ ؟ »

ورأى الرجلان أن يعودا مرة ثانية إلى الوالى محمد على باشا الذى استقبلهما بالترحاب المعهود .

وقال كراميو فى أدب : «لقد أردنا أن نبلغ الباشا المعظم أننا قررنا التبرع لحكومته الرشيدة بمبلغ يفوق المبلغ السابق » .

ابتسم محمد على ابتسامة تاجر قديم كان يبيع الدخان فى « قولة » قال وهو يعبث بلحيته الطويلة : « لا شك أنكم تريدون شيئًا آخر غير العفو »

أردف مونتيفيورى هذه المرة : « سنضع المزيد من إمكانياتنا إلى جانبك فى حربك مع أعدائك ، سواء من المال أو السلاح أو التأييد السياسى ، وسيكون أبناء ملتنا فى مصر والشام خدامًا مخلصين لك .. بل وفى أوروبا أيضًا ..»

انتشى محمد على من الكلمات الحلوة المفرحة وقال :

- « لا أريد مساومة أكثر .. أوجزوا وأفصحوا .. عما تريدون ..»
- « العفو أطال الله عمرك معناه أنهم أذنبوا وثبتت الجريمة ضدهم ، ولسوف يعانون من جراء ذلك بعد العفو عنهم ..»

ضحك محمد على ضحكة من أعماقه .. ثم قال :

– «ماذا تظنون إذن ؟ ؟ إننى أثق فى شريف باشا وفى قناصل الدول الذين أشرفوا على كل مراحل التحقيق ..»

طأطأ الرجلان رأسيهما بينما همس «كراميو» فى شيء من الجرأة :

– «التشكيك فى الجريمة من مصلحة الجميع ..»

هز محمد على رأسه عنوان الموافقة، وأراد أن يُنهى الأمر بسرعة، وتمتم : «إن القضية قد اتسعت وشغلت الأذهان، ويجب أن نبتر الاهتمام بها نهائيًا ..»

ثم أمر بكتابة «فرمان» آخر تحققت فيه رغبة اليهوديين الكبيرين ..

«إلى شريف باشا والينا فى دمشق ...

إنه من التقرير المرفوع إلينا من الخواجات «مويز مونتيفيورى» و «كراميو» اللذين أتيا لطرفنا مرسلين من قبل عموم الأوروبيين التابعين لشريعة موسى، اتضح لنا أنهم يرغبون فى الحرية والأمان للذين صار سجنهم من اليهود، وللذين ولوا الأدبار هربًا من تهمة حادثة الأب توما، الراهب الذى اختفى فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٥٥ للهجرة مع خادمه إبراهيم ..

وبما أنه بالنظر لعدد هذا الشعب الوفير، لا يوافق رفض طلبهما، فنحن نأمر بالإفراج عن المسجونين وبالأمان للهاربين من القصاص عند رجوعهم، ويترك أصحاب الصنائع فى أشغالهم، والتجار فى تجارهم، بحيث أن كل إنسان يشتغل فى حرفته الاعتيادية، وعليكم

أن تتخذوا كل الطرق المؤدية لعدم تعدى أحد عليهم أينما كانوا، وليتركوا وشأنهم من كل الوجوه، هذه إرادتنا «بصمة ختم محمد على»

صورة طبق الأصل ...

عندما قرأ شريف باشا والى دمشق ذلك «الفرمان» الغريب لهثت أنفاسه، ودارت به الأرض، اشتد به الضيق، وأقعده الخطب الجسيم عن النهوض، ورنت فى رأسه كلمة «العدالة».. لم يذبح البادرى وخادمه وحدهما، وإنما قُطِّع جسد العدالة إربًا إربًا، سبعة شهور من التحرى والتدقيق والتحقيق.. اعترافات كاملة.. شهادات ثابتة.. حتى البلاطة المنفسخة التى حطمت عليها جمجمة البادرى.. وقطع طربوشه.. وعظامه.. والسكين.. ويد الهاون.. تعاليم التلمود الصريحة.. أقوال الحاخامات.. التفاصيل الدقيقة الصغيرة لكل شيء.. يا ضيعة العدالة.. قناصل الدول الذين شهدوا كل شيء وتحققوا من كل شيء.. قضية الرشوة الأخيرة.. العدالة.. العدالة.. ها ها ها

وأخذ شريف باشا يضحك فى هستيرية ثم صاح فحضر العسكر، فقال لهم بصوت عال أجش: «أفرجوا عن جميع المسجونين.. تلك إراداة الوالى باشا الأظم، وليحيى العدل ..»

كان ذلك فى يوم ٥ سبتمبر (أيلول) عام ١٨٤٠ ميلادية.



الفصل ٢٢

ليالى دمشق نومها عذاب، ونهار دمشق عيون وجلة، ووجوه مكفهرة، والأحاديث هامسة مشحونة بالثورة، وعاد الناى الحزين يرتل أنغامه على شاطئ «بردى» ومواويل الحفاة والعراة هى سجل التاريخ الصادق، مواويل ينساب منها الحنين، وتنسكب الدموع .. قال شيخ ضرير يؤم المصلين بعد أن أدى فريضة الفجر :

«كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . تذكروا يهود بنى قريظة . كانوا يا أبنائى حلفاء الرسول ﷺ، اتفقوا معه على أن يردوا كل مهاجم أو معتد على يثرب، وأن يمدوا الرسول بالمؤن والرجال، عند الضرورة وجاء «الأحزاب» من كل مكان لحرب الرسول، أحاطوا المدينة، كان الرسول قد حفر هو وأصحابه خندقًا كبيرًا فلم تستطع الأحزاب أن تعبره .. ولم يبق إلا المؤخرة، ولكن فيها حلفاء النبى من اليهود .. وغدر اليهود .. نكثوا بالعهد .. ظنوا أن انحيازهم لقريش والأحزاب سيقضى على الإسلام والمسلمين إلى الأبد، ولكن الله سلّم، وصمد المسلمون، وعصفت الريح وتبدد شمل الأعداء، واستدار الرسول لينزل بالغادرين العقاب، كان عقابًا صارمًا لا ينسى ..»

ثم تنهد الشيخ الضرير وقال : «عن رب العزة يقول الرسول : يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، .. والظلم أيها الأخوة ظلمات يوم القيامة .. فلتقرؤوا الفاتحة على أن يقصم الله ظهر الظالمين ..»

وفهم الحاضرون ما يريد الشيخ أن يقوله، واعتصموا بالصمت، والصمت بركان حبيس لا يدرى أحد متى ينفجر، فيدمر ويسحق الأخضر واليابس.. وصحا الرهبان فى ذات اليوم فى دير «تيرسانت»، وتراصوا للصلاة، كانت الدموع ممتزجة بالتراتيل الحزينة، ومن آن لآخر يرفع المرتل صوته باسم «يسوع»، وقال أحد الحاضرين وهو يسدد نظراته إلى صورة رائعة للمسيح: «ماذا أرى؟ إنها.. ليست صورة المسيح.. إنى أرى وجه البادرى توما..» وربت أحد الآباء على رأسه فى رقة: «لا تحزن يا بنى.. زعموا أن البادرى هاجر.. نعم هاجر إلى الله.. إلى ملكوت السماوات.. وصعدت روحه الطاهرة على صليب قاس صنعه يهود اليوم.. دائمًا يعبثون بكرامة الإنسان، ويتلذذون بتعذيب الأبرياء، الوحش يا أبنائى يلتهم الفريسة دون حقد أو تشف.. أما اليهود فقد كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون، كانت حياة البادرى توما عذراء طاهرة شفافة، وصعدت روحه إلى أبينا الذى فى السماوات.. مضمّخة بالعطر والعبير والأهازيج القدسية..»

ثم تصاعدت تراتيل الراهبات الشجية توشى الصمت والظلام بنغم حزين.

وقالت زوجة قنصل من قناصل الدول الكبرى:

– «إن ما حدث يعتبر مهزلة كبرى..»

قال زوجها القنصل ساخرًا:

– «لا شك أنها قصة مسلية ومثيرة، وللسياسة أحكام يا زوجتى العزيزة، وميكيافيللى يقول فى كتابه «الأمير»: الغاية تبرر الوسيلة..»

وارتمى رجل سكران على قارعة الطريق وأخذ يهذى :

– « أنا بطل حرب « المورة » .. أنا فارس « عكا » .. أكلت مع إبراهيم باشا على مائدة واحدة .. لكنى والله ما قتلت البادرى ولا أعلم عن الحادث شيئًا ..» وانفجر باكيًا فجاء عسكرى الدرك وأخذ يجره إلى حيث لا يعلم أحد ..

أمسكت امرأة صغيرة السن بطفلها ثم قصته من خده وقالت :

– « إذا لم تسمع كلامى أرسلتك إلى حارة اليهود ليذبحوك ..»

وقال يهودى نجار لزميله وهو يدق المسامير فى عصبية :

– « إنهم لا يعرفون من نحن ، لقد انتصرنا وخرجنا برغم أنف شريف باشا ..»

– « آه .. وغدًا تنفخ البوق فى أريحا ..»

– «ونعمّر أورشليم الخراب .. ونرشق راياتنا على أرض « الجول » الجرداء .. نحن كل شيء ..»

ومالت راقصة يهودية على ثرى من أثرياء الشام فى إحدى الحانات ، وهمست فى دلال :

– « أتخاف منى ؟ »

رد عليها قائلًا :

– «يا سعادتى وهنائى لو مت بين يديك ..

وبالقرب من المسجد الأموى ، وقف بائع الكتب والمخطوطات القديمة يتحدث مع بعض الشباب :

« انظروا .. هذه كتب قديمة عن ذبائح اليهود ، وهذه مخطوطات ألّفها علماؤنا الأقدمون عن فظائعهم وتاريخهم ، ولكن للأسف أنتم لا تقرؤون ..»

وقال رجل يقرأ القرآن على أحد المقابر لزميله :

- « أتعتقد أن البادرى سيدخل الجنة ؟ ؟ »

- « وهل آمن بالله ورسوله .. ؟ ؟ »

أما الصيدلى سانتى صديق الأب توما فقد قال والدموع تترقرق فى عينيه :

- « القصة قديمة .. الصراع بين الذهب والمبادئ .. الأنبياء وأتباعهم هم الذين استطاعوا بقوة المبادئ أن ينتصروا على إغراء الذهب ، وما أكثر المعارك التى تكون فيها الغلبة للذهب .. للأسف الشديد ! ! توما ضحية العصر المنهار الذى يحكمه الذهب لا القانون .. توما الذى انتصر على سلطان الذهب القاهر ، استطاع الذهب فى النهاية أن يهدر دمه ، ويضيع القصاص ، ويسحق العدالة ، ويلوى أعناق الحكام الكبار . . .»

واحتشد عدد من رجال الشرع والقانون مسلمين ومسيحيين ، وقرروا أن يكتبوا عريضة لمحمد على باشا ولشيخ الجامع الأزهر يحتجون فيها على « الفرمان » ، غير أن « أحد العقلاء » قال لهم :

- « لا تفعلوا شيئًا كهذا ، وإلا ألقيتم بأنفسكم فى مشاكل لا يعلم إلا الله مداها ..»

وتألقت الأنوار فى حارة اليهود ، وتناهت إلى أسماع أهل دمشق الأغانى والموسيقى الهادرة ، والطبول العالية وامتلأت الحارة الشهيرة بالأعلام والرايات الملونة ، وبصورة كبيرة لمحمد على باشا ، وعاد المتهمون إلى بيوتهم ، وسط التظاهرات الصاخبة ، وتلقت كاميليا زوجها وسط الزحام بالقبلات والعناق دون أدنى حرج ، وابتسم داود لها فى ود بالغ ..

أما سليمان الحلاق فقد بقى قابعًا فى دكانه لا يعير الأمر اهتمامًا ، لكنه فكر فى أن يبحث له عن مكان آخر يتخذ له فيه حانوتًا .. إنه يشعر بحصار من نوع ثقيل ، لا يلمسه بيديه وحواسه ولكنه يشعر به ككابوس نفسي مرهق .. ومحمد أفندى أبو العافية بعد أن غادر حارة اليهود إلى الأبد ، كان يُرى كل صباح متأبطًا بعض الكتب الدينية والمصاحف ، ومتجهًا إلى المسجد الأموى ، ولم يعلق على خروج اليهود إلا بعبارة موجزة ذات معنى :

– «ليس المهم أن يخرجوا من السجن أو يبقوا فيه ، ولا يهم أن يُعدموا أو تُكتب لهم الحياة .. إن أخطر سؤال يواجه الإنسان المخلص هل هو يسير على صواب أم يخوض فى أشواك الهلاك والضلال ؟ ؟ »

وما أن هدأت الأحوال واستقرت الأمور وكاد الناس أن ينصرفوا عن حادثة البادرى ومخلفاتها حتى قدمت كاميليا إلى زوجها وقالت فى هدوء تحسد عليه :

– « آن أن أخبرك بالحقيقة »

التفت إليها فى دهشة وقال :

– «ماذا ؟ ؟ »

– «لقد قررت الرحيل »

– «كيف ؟ ؟ »

– «لقد أديت واجبى ويجب أن تنتهى حياتنا الزوجية »

– « إننى لا أصدق ما أسمع . كنت نعم الزوجة فى محنتى ..»

– « أما وقد انتهت المحنة يا داود .. فواجب أن تطلق سراحى » .

– «كاميليا حبيبتى .. أنا ومالى وما أملك تحت تصرفك ..»

– قالت وهى تبتسم فى مرارة : «حان وقت الفراق .. ولا فائدة ..»

أحنى رأسه فى ذلة .. فهم كل شيء ..اقترب منها فى محاولة أخيرة ، واختطف يدها وقبلها ، ثم أقعى كالكلب على قدميها ، فرجعت إلى الوراء بحركة سريعة : «لن أرجع فى قرارى ..»

- « افعلى ما شئت يا حبيبتى ، لك الحرية فى أن تستكملى سعادتك بالطريقة التى ترينها .. لكن لا تتركينى ..» عادت تبتسم فى مرارة ، لشد ما تحتقره الآن ، تمالكت أعصابها وقالت فى قوة وإصرار :

- « أنا خارجة ولن أعود ..وأى كلام بهذا الخصوص لا فائدة منه ..»

رآها تسبغ الخمار على وجهها ، وتحكم العباءة الرقيقة على جسدها الفاتن ، وتخطو صوب الباب فى إصرار .. فشعر بقسوة الحرمان ، ومرارة العجز .. فهتف :

- « والطفلان ؟ ؟ »

دمعت عيناها ، وتمتمت :

- « أنا فى انتظارهما دائمًا .. ولن أتخلى عنهما أو أنساهما ..»

وأدرك للمرة الثانية فى حياته ، وبصورة أعمق وأفظع .. كيف يقاسى المطرود من النعيم ، وشعر بكراهية قاتمة للحياة بكل ما فيها ، ككراهيته اليوم للفطير المقدس .. بل إنه أصبح يكره كلمة « مقدس » نفسها .. وحاول أن ينهض فلم يستطع وترك لدموعه العنان . .



تذييل

قصة بالوثائق

لعل من العسير بعض الشيء، أن يكتب الأديب قصة فنية مدعمة بالوثائق، إن الوثائق غالبًا ما تأتى جافة مباشرة لا تهتم إلا بالحقائق المجردة، والصيغ التقليدية والعبارات الركيكة والمتداولة، والوثائق تبرز الحقائق الأولية، ولا تكترث بالأبعاد النفسية للشخصيات، وقد تغيب فى ثناياها بعض الدوافع الهامة والأسس الخطيرة .. والفنان الذى يريد كتابة قصة مدعمة بالوثائق لا يستطيع أن يضع الوثائق متجاورة ويتقيد بحرفية التسلسل، وإلا كانت كتابته مجرد بحث تاريخى، أو دراسة قانونية محكمة، وهذا وضع قد يتعارض مع مسلتزمات الفن القصصى، ويخرج به عن دائرة الإبداع المطلوب، والإجادة المرجوة، ومن ثم فلا طريق للفنان سوى أن يضع قاعدة عريضة وأساسًا متينًا، يقيم عليهما بناءه الفنى، ألا وهو الحقائق الكلية، والاستعانة ببعض الوقائع المبتكرة .

ولكى أزيد الأمر توضيحًا أقول : إن الحقائق الكلية ، أقصد بها الأمور الثابتة ، التى أبرزها التحقيق ، وقررتها الوثائق دون شك ، أما الوقائع المبتكرة وهى هامة للغاية ، فأقصد بها محاولة رسم الخلفية الاجتماعية والعاطفية والنفسية للحدث . إن زوجة داود هرارى « كاميليا » مثلًا لم يقصد بها سوى إبراز التناقض الحاد ، والعفن الاجتماعى ، والاضطراب العاطفى ، الذى تفرزه التعاليم الزائفة المستقاة من شروح التلمود ، وتعززه القيم الفاسدة ، التى درج عليها المجتمع اليهودى ، بما يسيطر عليه من جشع وأنانية ومادية مفرطة .. كاميليا رمز حيوى متحرك وتجسيم لمأساة الضلال اليهودى القديم ، وصورة صادقة للعقد النفسية .. التى ينضح بها التاريخ الطويل لملة أصابها الزيف والشطط عبر العصور .. وقس على ذلك ما قد يرد من حوار موضوع ، أو مواقف متخيلة ، لا تتنافى وطبيعة القضية المطروحة ، ولا تخرج عن إطار الحديث المثير . وإذا كان النهر يشق طريقه من المنبع إلى المصب بقوة ذاتية ، وفق قوانين أزلية ، فإن إرادة الإنسان الفنان كثيرًا ما تحفر له الفروع ، وتصنع منه الشرايين التى تزيد من فعالية النهر ، وترفع من قيمته وجدواه ، دون أن يطغى ذلك على الصورة التقليدية للنهر الكبير ، المتدفق دائمًا من المنبع إلى المصب ..

وكان لزامًا من آن لآخر أن أثبت بعض النصوص بحذافيرها ،

دون أن يتعارض ذلك مع السياق الفنى ، وهذه النصوص أساسية وهامة ، وتشكل جوهر قصة « الأب توما » ، وبعض النصوص لجأنا إلى اختصارها ، لتؤدي الغرض المطلوب دون إخلال بالحقيقة التاريخية أو الفنية . إن حقد الصهيونية على المسيحية قديم ، ومؤامراتها ضد الإسلام والمسلمين لا تخفى على أحد ، وليس وراء هذه القصة من هدف سوى أن تعيد للأذهان حلقة من سلسلة طويلة من العداء الصهيونى ، ضد الإنسانية جمعاء ، لعل العالم المسيحى والعالم الإسلامى أيضًا يدركان خطر الموقف ، وما يحفل به المستقبل من كوارث يطويها الحقد الصهيونى فى قلبه الأسود منذ قرون طويلة ، ولعل ذلك يكون ناقوسًا يدق فى عنف يوقظ النيام وسماسرة السياسة ، والمتلاعبين بالألفاظ ، وأدعياء البطولة ، كى يعلموا أن الأمر جَدٌّ خطير وأن المعركة حاسمة ..

ألا وإن الكمال لله وحده .

وذلك جهد المقل والله الموفق .

نجيب الكيلانى



٥٠١ اليهود ومقتل البادري توما

أوائل محرم سنة ١٢٥٦

دفتر من الورق الصكوكي القديم طولهُ ٨٢ سنتيمترًا وعرضه ٢٤ سنتيمتر وهو لا يزال محفوظًا بين أوراق منصورتيان - أحد كتاب شريف باشا- لدى ابنه بطرس فى بيروت . وهو نسخة من المحضر الرسمي الذى أرسل وقتئذٍ إلى مصر لا الأصل نفسه وذلك بدليل العبارة الواردة فى آخره « لغاية هذا توجهت الصوّر لمصر وللأعتاب السر عسكرية ولسليمان باشا » . ويرجع الفضل فى اكتشاف « مسودة » هذا المحضر حضرة الأب بولس قرالي كما أبان ذلك فى المجلة البطريركية جـ ٦ ص ٥٩٥ . أطلب أيضًا كتاب المذكرات التاريخية لتأشيره الخوري قسطنطين الباشا ص ١٨٦ - ٢٠٣ وكتاب الجواب على اقتراح الأحباب للدكتور مخائيل مشاقه(خط نسخة جامعة بيروت الأميركية) ص ٢٧٣ - ٢٨٠) والمجلد الثاني من كتاب أشبل لوران المشار إليه سابقًا ص ٧ - ٣١٧.

راجع كذلك كلام الأب مندوفي Mandovi في كتابه

أطلب أيضًا موجز المسو دريو فى كتابه

وكتاب حبيب فارس « صراخ البري فى بوق الحرية» (طبع مصر سنة ١٨٩١)

جرنال فقد البادري توما الكبوجي وخادمه إبراهيم اماره المقتولين بحارة اليهود بمحروسة الشام وذلك يوم الأربعاء مساءَ الواقع في ٢ ذي الحجة سنة ٢٥٥ يوم الجمعة الواقع في ٤ ذي الحجة سنة ٢٥٥ حضر الخواجا بودين في الديوان

[نقلًا عن كتاب الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي – د . أحمد رستم]



مراجع الرواية:

١- وثائق التحقيق فى قضية الأب توما .
٢- كتاب ذبائح اليهود .
٣- الكنز المرصود فى قواعد التلمود .
تأليف : الدكتور روهلنج وشارل لوران
ترجمة : الدكتور يوسف حنا نصر الله
٤- التلمود (تاريخه وتعاليمه)
تأليف ؟ ظفر الإسلام خان

